البَابُ السَّابِعُ

الأمثال

أ- تمهيد

دخل كتابُنا «الأدبُ الجاهليُّ» أمثالَ العرب من باب اللغة، فوقفَ القارئَ على اشتقاق لفظ «مَثَل» ومعناه، وذكر أن الأمثالَ بعد أن تُصاغ تجمدُ عباراتُها على ما وُضِعت عليه، فلا تتغيَّرُ بتغيُّر المواضع التي ترد فيها، والأشخاص الذين يخاطبون بها. وعرضت الدراسة نموذجات من أمثال العصر الجاهلي، استنبطت منها أبرزَ سماتها الفنية، وهي عمقُ الأفكار، وإيجازُ الألفاظ والاستعانة بالتصوير.

ونهج كتابُ «النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة» النهجَ نفسه. لكنه عُني بما ذكرتْ كتبُ الأدب والنقد فوق عنايته بما ذكرت كتب اللغة، فتحدَّث عن آراء كبار الأدباء والنقاد، ومنهم: أبو عبيد القاسم بن سلام [ت: ٢٢٤هـ] وأبو يوسف يعقوب بن إسحاق المشهور بابن السكّيت [ت: ٢٤٤هـ] وأبو العبَّاس محمد بن يزيد المبرِّد [ت: ٢٨٦هـ]. وناقش الكتاب ما ذكره إسحاق بن إبراهيم الفارابي [ت: ٣٥٠هـ] في كتابه ديوان الأدب، ولم يغفل الإشارة إلى رأي المستشرق رودلف زلهايم، واستنبط من هذه الآراء جميعاً تعريفاً للمثل، وهو: المثلُ عبارةٌ عميقةُ المعنى، موجزة اللفظ، محكمة السبك، كثيرة التداول، مجرَّدة حيناً، مصورة حيناً آخر، تأتي مستقلة، أو خلاصة لتجربة، أو خاتمة

لقصة، وتُطبَّقُ بعد وضعها على أوضاع كثيرة تشبه الحالة التي أنجبتها بعضَ الشبه إذْ تْوافقُها في الدلالة أو الغرض، وليس من الضروري أن توافقها في الحدث.

وبعد التعريف قارن الكتاب الأمثالَ بالحِكَم، وأفضت به المقارنة إلى أن بين الطائفتين من التشابه أكثرَ ممَّا بينهما من الخلاف، فكلتاهما ترصُّ المعاني الكبيرة في جمل قصيرة، وكلتاهما تصلحان لكل زمان ولكل مكان، فهما متحدَتان في الجوهر الفكري، مختلفتان في الشيوع، فالأمثال أشهر من الحِكم وأشيع، فهي تغزو عقول العامة والخاصة، وتتناقلها ألسنة الأدباء والدهماء، وربما صنعت الشعوب غير المثقفة بلهجاتها العامية أمثالاً، فأصابت من الشهرة أضعافَ ما تُصيبه الحكمُ والأمثال الفصيحة.

ثم قارن الكتابُ المثلَ بالتمثيل، فوجدهما متَّفقين كلَّ الاتفاق في المضمون، مفترقين بعضَ الافتراق في الشكل. فالمثل قد يبقى فكرةً مجرَّدة، والتمثيلُ يحرصُ أشدَّ الحرص على الرسم والتلوين والتحريك وبثِّ الروح فيما يقول. إنه ينقل الفكرة من الحقيقة إلى المجاز، ويخلع عليها لبوساً فنياً يجملها ويكملها، ويملأ بها عقل الإنسان وقلبه على النحو الذي سيتجلَّى لك فيما نعرض من تمثيل قبسناه من العصر الأموي.

ب- انتجاع ما لم ننتجع قبلُ

إن انتقالنا بدراسةِ الأمثال من عصرٍ إلى عصر لا يعني بالضرورةِ أن أمثالَ العصرِ اللاحق خالفتْ أمثالَ العصر السابق، فكلُّ ما وجدنا من تعريفاتٍ ودراسات في المصادر التي انتجعناها فيما أثبتنا قبلُ يمكن أن يصدقَ على أمثال العصر الأمويّ، ومع ذلك آثرنا أن نلمَّ بمصادر أخرى، أغفلناها في الكتابين السابقين لعلَّنا نقعُ فيها على جديد مفيد. فإنْ لم نجد جديداً، فقد نجدُ تفسيراً لغامضٍ، أو تفصيلاً لمجمل، أو تكملة لنقص. روى أحمد بن محمد النيسابوري الميداني[ت:٥١٨هـ] عن عبد الله بن المقفع [ت:١٤٢هـ] قوله[١]: «إذا جُعلَ الكلام مثلاً كان أوضحَ للمنطق، وآنقَ للسمع، وأوسع لشعوب الحديث».

(١) مجمع الأمثال١/٦.

وروى عن إبراهيم بن سيّار النظَّام [ت: ٢٣١هـ] قوله: «يجتمع في المثل أربعةٌ لا تجتمعُ في غيره من الكلام: إيجازُ اللفظ، وإصابةُ المعنى، وحسنُ التشبيه، وجودةُ الكناية. فهو نهاية البلاغة».

ثم علَّق الميداني على القولين السابقين- وتعليقُه يظاهرُ ما ذكرنا في التمهيد ويفسّره ويكمله- فقال[1]: «مَثَلُ الشيء ومِثْلُه، وشَبَهُه وشِبْهُه: ما يماثلُه ويشابُهه قدْراً وصفة... فالمَثَل ما يُمَثَّل به الشيءُ، أي يُشَبَّه، غير أن «المِثل» لا يوضع في موضع «المَثَل» وإن كان المَثَل يوضع في موضعه... فصار المَثَلُ اسماً مصرحاً لهذا الذي يُضْرب. ثم يردُّ إلى أصله الذي كان له من الصفة، فيقال: مَثَلُك ومَثَلُ فلان، أي صفتُك وصفته. ومنه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٥] أي صفتُها. ولشدَّة امتزاج معنى الصفة به صحَّ أن يقال: جعلتُ زيداً مثلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٧] جعل القومَ أنفسَهم مثلاً في أحد القولين».

تستطيعُ أن تستخلص من القولين أموراً تكمِّل بها ما سبق ذكره:

أوَّلُها أن المثل قبل أن يكتسب دلالته الاصطلاحية كان صفةً كالصفات التي تقاربُه في المعنى نحو: شبيه، ونظير، ومُضارع. فلمَّا شاعت الحكمةُ التي أنجبته، وتُنوقلت صارت مثلاً، أي قالباً تُصبُّ فيه الأشياءُ، لتخرج على هيئة واحدة.

والثاني أن لشيوع المثل سبباً فكريّاً، يتجلى في وضوحه، وسعةِ أفقه، وقدرته على أن يستوعب أوضاعاً كثيرة تُشبه على نحو من الأنحاء الوضعَ الذي اقتضاه.

والثالثُ أن فيه جمالاً لفظيّاً، يُطرب السامع، ولا تجد في ضربٍ آخر من ضروب الكلام ما يعادلُه. وتطريبه ينجم إمّا عن السجع والجناس، وإمَّا عن رشاقة الألفاظ، وإمَّا عن الوزن العروضي إذا كان بيتاً أو شطراً من بيت.

والرابعُ أن فيه تصويراً مُتْقَنَ الرسم: يأتي تشبيهاً مرّةً، واستعارة أخرى، وكنايةً ثالثة.

---

(١) مجمع الأمثال ١/ ٦ وقد ورد القولان في النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة/ ١٧٨ بلا درس ولا تحليل.

وهذه الأمورُ الأربعة فتحتْ له الأسماع والقلوبَ والعقول، فطار في الآفاق كلَّ مطير. وقال أبو البقاء الكفوي - واسمه أيوب بن موسى الحسيني- [ت: ١٠٩٤هـ] في تعريف المثل وشروطه[١]: «المثل اسم لنوع من الكلام، وهو ما تراضاه العامة والخاصة لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ، يستعمل في السَّراء والضرَّاء، ويُستعار لفظُ المثل للحال كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ٢/١٧]. وهو أبلغ من الحكمة... ويسمَّى الكلامُ الدائر في الناس للتمثيل مثلاً لقصدهم إقامة ذلك مُقام غيره. والشرطُ في حسن التمثيل هو أن يكون على وفق الممثَّل له من الجهة التي يتعلَّق بها التمثيل في العِظَم والصِّغر، والخِسَّة والشرف». ثم استشهد على كلامه بشاهد من الإنجيل، وهو: «مخاطبة السفهاء كإثارة الزنابير» وبشاهد من كلام العرب، وهو: «أَطْيَشُ من فراشة».

وفي نصّ الكفوي أمران تحسنُ الإشارة إليهما:

أوّلهما أنه بذكره الآيةَ القرآنية وسَّع إطار المثل، وألحق به التمثيل، والتمثيل فنٌّ آخر.

والثاني أنّه خَلَعَ على الأمثال دلالاتٍ مِعيارية، ومنحها قيماً أخلاقية، وهذا الشرط قد يطَّردُ وقد يتخلَّف.

وقال محمد علي التهانوي في تعريف المثل، وإيراده على صورة واحدة أيّاً كان المخاطب به[٢]: «المثلُ بمعنى النظير، ثم نُقِل إلى القول السائر، أي الفاشي الممثَّل بمضربِهِ وبمورِدِه. والمرادُ بالمورِد الحالةُ الأصلية التي ورد فيها الكلام، وبالمضرب الحالةُ المشبهة بها التي أريد بها الكلامُ. وهو من المجاز المركب، بل لفشوِّ استعمال المجاز المركب بكونه على سبيل الاستعارة سُمِّي بالمثل. ثم إنه لا تُغَيَّر ألفاظُ الأمثال تذكيراً وتأنيثاً وإفراداً وتثنية وجمعاً، بل إنَّما يُنظر إلى مورد المثل. مثلاً إذا طلب رجل شيئاً ضيَّعه قبل ذلك، تقولُ له: ضيعتِ اللبن بالصيف، بكسر تاء الخطاب، لأن المثل قد وردَ في امرأة، وذلك لأنَّ الاستعارة يجبُ فيها أن يكون لفظُ المشبه به المستعمل في المشبه، فلو تطرَّق تغيرٌ إلى الأمثال لما كان لفظُ المشبه به بعينه، فلا يكون استعارة، فلا يكون مَثلاً».

---

(١) الكليات ٤/٢٦٨-٢٦٩.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون/ ١٤٤٩.

وأغربُ ما تستغربُ من كلام التهانوي إصرارُه على أن يلزَمَ ضاربُ المثل مورده أي حالته الأصلية،وهو لم يلتزمْ ما ألزم غيرَه، إذْ غيَّرَ صيغةَ المثل تغييراً ذهبَ برونقه، وأفسدَ وزنه، وأصلُه شطرٌ من مجزوء الرجز «الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن»[١].

أمَّا المستشرق رودلف زولهايم فإنه ينقل عن المزهر للسيوطي تعريفين أحدهما للفارابي، والثاني للمرزوقي ويعلِّق عليهما، فيقول[٢]: «يقول الفارابي: المثلُ ما تراضاه العامَّة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السَّراء والضَّراء، واستدرُّوا به الممتنع من الدرّ، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرَّجوا به عن الكرب والمكربة، وهو أبلغُ من الحكمة، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة».

يعلِّق زولهايم على التعريف فيقول[٣]: «وفي هذا التعريف إبرازٌ لمسألة ثبات الأمثال وتداولها. وفيما عدا ذلك إمكانية التعبير عن أشياء، لا يُعبَّر عنها بطريق مباشر إلّا بصعوبة، وتلك ملاحظة صائبة جداً. ويتحدث الفارابي أيضاً عن التأثير النفسي للأمثال، وإن لم يفصل القول في ذلك. ولعلَّ ذلك يتضح من أن المثل يتحدث عن الحاجة الشخصية في ثوب إنساني عام».

ثم ينقل زولهايم تعريف المرزوقي، وهو[٤]: «المثل جملة من القول مُقْتَضبةٌ من أصلها، أو مُرْسَلةٌ بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتُنْقَلُ عمَّا وردت فيه إلى كلِّ ما يصحُّ قصده بها، من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمَّا يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني. فلذلك تُضْرَب، وإن جُهلتْ أسبابُها التي خرجت عليها».

وبعدما أورد زولهايم كلام المرزوقي، علَّق عليه بقوله[٥]: «ففي هذا التعريف توضيح لحقيقة المثل، فهو يُضرب في حالات مشابهة لمورده

(١) فصل المقال/ ٣٥٧.
(٢) المزهر ١/ ٤٨٦.
(٣) الأمثال العربية القديمة/ ٢٥.
(٤) المزهر ١/ ٤٨٧.
(٥) الأمثال العربية القديمة/ ٢٦.

الأصلي، كما يظل مثلاً يُضْرَب وإن جُهل أصله، ولا يُغيَّرُ لفظُه في أيَّةِ حالة من حالات استعماله».

ليس في تعريفي الفارابي والمرزوقي، ولافيما علَّق به عليهما زولهايم جديدٌ نُضيفُه إلى التعريفات والتعليقات السابقة. غير أننا- من باب الإقرار بالفضل لذويه- نقرُّ بأن التعريفين أوضحُ وأوفى من كلام ابن المقفع والنظّام، وأفصحُ وأشفى من كلام الكفوي والتهانوي، وبأن المستشرق أشار إشارةً خاطفة إلى الجانب النفسي في مضمون الأمثال.

هذا ما استطعنا أن نجنيه من انتجاعنا بعضَ المصادر التي أغفلناها في الكتابين السابقين. فمن أبى إلا أن يستزيد فليرد الموارد الأخرى[1] لعلَّه مصيبٌ فيها ضالَّتهُ، وناقعٌ بورودها غُلَّتَه.

جـ- مِمَّا قيل في التمثيل

في كتابنا «النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة» تحدّثناعن التمثيل في موضعين: أوَّلُهما في باب الحديث الشريف حينما درسنا البلاغة النبوية. والثاني في باب الأمثال، إذْ قارنا المثل بالتمثيل مقارنة تطبيقية لا نظرية. والآن نشفع التحليل التطبيقي بالآراء النظرية لكي نتهدّى بما قال بعض البلغاء في هذا الفن، ولكي نميز التمثيل من المثل تمييزاً دقيقاً، نستفتي فيه أهل الذكر.

---

(١) «من كتب الأمثال التي وصلت «الزاهرفي معاني كلمات الناس» لأبي بكر محمد بن القاسم بن الأنباري ت/ ٣٢٨ هـ. «تلقيح االعقول في الأمثال والحكم» لبرية بن أبي اليسر الرياضيّ ت/ ٣٦٥هـ. «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري ت بعد/ ٣٩٥هـ.
ومن كتب الأمثال التي لم تصل. كتاب أبي عمرو زبان بن عمار ت نحو/ ١٥٤ هـ.كتاب يونس بن حبيب ت نحو/ ١٨٢هـ. كتاب النضر بن شميل ت/ ٢٠٤هـ. كتاب أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري ت/ ٢١٤هـ. كتاب أبي عثمان سعدان بن المبارك الضرير ت/ ٢٢٠هـ. كتاب أبي يوسف يعقوب بن السكيت ت بين/ ٢٤٣-٢٤٦هـ. كتاب أبي جعفر أحمد بن أبي عبد الله البرقي ت/ ٢٧٤هـ. كتاب أبي الحسن علي بن مهدي الأصفهاني ت/ ٢٧٨-٢٨٩هـ. كتاب أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة (نفطويه) ت/ ٣٢٣هـ. كتاب «جامع الأمثال» لأحمد بن إبراهيم القمّي ت/ ٣٥٠هـ. كتاب «الحكم والأمثال» لأبي أحمد الحسن عبد الله العسكريّ ت/ ٣٨٢هـ. كتاب الحسين بن محمد الرافقي ت/ ٣٨٨هـ» عن كتاب «الأمثال العربية القديمة» لزلهايم.

قال أبو البقاء الكفوي[١]: «التمثيلُ يُطلق على التشبيه مطلقاً. وكتبُ التفسير مشحونة بهذا الإطلاق، ولا سيَّما الكشَّاف. ويطلق أيضاً:

١. على ما كان وجهُ الشبه [فيه] مركَّباً غيرَ محقَّق حِسّاً، وهو مذهبُ الشيخ.[لعله يريد بالشيخ عبد القاهر الجرجاني].

٢. وعلى ما كان وجهه مركَّباً غير محقَّق لا حسَّاً ولا عقلاً. وهو مذهب السكَّاكيّ.

٣. وعلى ما كان وجهه مركَّباً محقَّقاً أَوْ لا، وهو مذهب الجمهور.

فلكلٍّ أن يُطْلِقَه على ما اشتهاه.... التمثيلُ أكثرُ من التشبيه، إذْ كلُّ تمثيلٍ تشبيهٌ، وليس كلُّ تشبيهٍ تمثيلاً». لو أعدت النظر فيما قال الكفوي لوجدت أنَّ أهل البلاغة متفقون في الجوهر، مفترقون في الإطار، فهم مجمعون على أن التمثيل تشبيه، مختلفون فيما يشمله على أربعة مذاهب: فالتمثيل عند الزمخشري يطلق على كلِّ تشبيه. وعند الجمهور يطلق على التشبيه المركّب، سواء أكان وجه الشبه فيه محقَّقاً أم غير محقّق. والجرجاني يشترط التركيب، وينفي التحقيق الحسّيّ. والسَّكاكيّ يقرُّ التركيب، وينفي التحقيق مطلقاً.

ولعلك لاحظت أن الكفوي لم يربط التمثيل بالمثل، ولم يشفع كلامه بشواهد توضحه. وخيرٌ منه محمد علي التهانوي إذْ قال في حديثه عن التمثيل: «.... هو التشبيهُ الذي وجهه منتزعٌ من متعدِّد كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٥] وعند الشيخ عبد القاهر: هو التشبيه الذي وجهه عقلي منتزع من متعدّد».

وفي العصر الحديث ربط المشتغلون بالبلاغة التمثيل بالمثل ربطاً فنيّاً، وعلّلوا هذا الربط، وأيّدوا ما قالوا بشواهد من الأمثال، قال السيد أحمد الهاشمي بك[٢]: «المجاز المركَّبُ بالاستعارة التمثيلية هو تركيبٌ استُعملَ في غير ما وُضِع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعةٍ من إرادة معناه الوضعيّ، بحيث يكونُ كلٌّ من المشبَّه والمشبه به هيئةً منتزعةً من متعدِّد.... ويُسَمَّى بالاستعارة التمثيلية، وهي كثيرةُ الورود في الأمثال السائرة، نحو: الصيفَ

(١) الكليات٢/ ٧٤.

(٢) جواهر البلاغة/ ٣٣٣-٣٣٦.

ضيَّعْتِ اللبن... وإذا فشتْ وشاعت الاستعارة التمثيليةُ، وكثر استعمالُها تكون مثلاً، لا يُغَيَّرُ مطلقاً».

من الأقوال السابقة تستطيعُ أن تستخلصَ عناصر الائتلاف والاختلاف التي يتَّفق فيها المثل والتمثيل ويفترقان:

أوَّلُها أن المثل والتمثيل ضربان من ضروب الحكمة التي ترصُّ كثيراً من المعنى في يسيرٍ من اللفظ.

والثاني أن المثل قد يكون حقيقةً مجرَّدة، وقد يكون مجازاً مصوَّراً. أمَّا التمثيل فلا يكون إلَّا مجازاً مصوَّراً، لأنه استعارةُ حالة لحالة، أو تشبيهُ وضع بوضع.

وثالثها أن التمثيل أبدعُ وأمتعُ، وأكملُ وأجملُ، وأوسعُ أفقاً، وأسطعُ ألقاً، لأن مقدار التصوير فيه يفوق مقدار التصوير في أخيه، إذا كان أخوه الأصغر مصوَّراً، وقد لا يكون.

والرابع أنَّ اتساعَ أفق التعبير والتصوير في التمثيل يوسِّع إطار التفكير، فيأتي التمثيلُ أغنى مضموناً، وأوسعَ إيحاءً، كما يأتي أجملَ شكلاً.

وآخرُها أن المثل أوجزُ وأنجز، وأسرعُ انقضاضاً على الفكرة، ووصولاً إلى المرمى، كأن ما فيه من بلاغة الإيجاز بدلٌ ممَّا افتقد من جمال التصوير. ولا تتضح هذه الفروق إلَّا بعد النظر في شاهد أو شاهدين على سبيل الموازنة.

من الأمثلة التي رواها الزمخشري قولُ العرب[1]: «أَجْمَعُ من ذرَّة» والذرَّةُ أصغر النمال. وهذا المثل يذكِّر القارئ تمثيلاً، رُوي عن شيخ القراء والمفسّرين مجاهد بن جبر [ت: ١٠٤هـ] وهو قوله: «مَثَلُ المؤمن كمثل النملة، تجمعُ في صيفها لشتائها».

إن المثلَ العربيَّ الذي رواه الزمخشريُّ لا يخلو من تصوير أتت خطوطُه وحركاتُه من تنقُّل النملة بين نِثار الحَبِّ وغارِ الجُحْر، غيرَ أنَّ تمثيل مجاهد جاءَ أوسع أفقاً، وأجمل رسماً، لأنه أوحى إليك بحركات لم يذكرها؛ لكن كلمة (المؤمن) تشي بها وهي حركاته في صلواته وطوافِه حول البيت وجهاده في

(١) المستقصى ١/ ٥١.

سبيل الله. فحركاته هذه أجملُ من حركات النملة وأرسخُ في الذهن. أضفْ إلى ذلك أنَّ صيف النملة وشتاءَها جُعلا وعاءين لنشاطها، كما جُعلتْ الدنيا والآخرة وعاءين لسعي المؤمن في مناكب الأرض ليفوز بجنة السماء.

وإذا كان في المثل السابق تصويرٌ يقرِّبه من التمثيل الذي يعادلُه في الدلالة الفكرية، فإن المثلَ الذي يصاغ صياغة مجرَّدة من الصور يبدو باهتَ اللون، خافتَ الصوت إذا قُرِن بتمثيل يقاربُه فيما يضرب له، ويبزُّه في الصياغة الفنية بأحداثه وشخوصه وصوره.

روى أبو عبيد البكري المثلَ التالي[١]: «السعيدُ مَنْ وُعِظ بغيره، والشقيُّ من وُعِظَ بنفسه».

وروى ابن عساكر التمثيلَ التالي الذي يُقاربُه في الدلالة، ويبزُّه في الصياغة فقال[٢]: «حبسَ الحجَّاجُ مالكَ بن أسماء بن خارجة- وهو صهرُ الحجاج- وكان عاملَه على الحيرة. وبعث إلى أهل الحيرة، فقال بعضُهم لبعض: هذا صهرُ الأمير يغضبُ عليه اليومَ، ويرضى عنه غداً. لا تتعرَّضوا له.

دخلوا على الحجَّاج، فسأل بعضَهم عنه، فقال: ما وَلِينا عاملٌ أعفُّ عن أشعارنا وأبشارنا وأموالنا منه، فضربه ثلاث مئة سوط. ثم دعا بقيةَ أصحابه، فسألهم عنه، فلَمَّا رأوا ما أصاب صاحبَهم رفعوا عليه كلَّ شيء. فقال الحجاج: ما تقولُ يا مالكُ فيما يقول هؤلاء؟ قال: أصلح الله الأمير، مَثَلي ومَثَلُك ومثل هؤلاء ومثلُ المضروب مَثَلُ أسد كان يخرج إلى الصيد، فصحبه ذئبٌ وثعلب، فخرجوا يتصيَّدون، فصادوا حمار وحش، وتيساً، وأرنباً. فقال الأسدُ للذئب: مَنْ يكون القاضيَ، ويقسم هذا بيننا؟ قال: أمَّا الحمارُ فلك يا أبا الحارث، والتيسُ لي، والأرنبُ للثعلب. فضربه الأسدُ ضربةً، وضعتْ رأسه بين يديه. ثم قال للثعلب: مَنْ يقسمُ هذا بيننا؟ قال: أنتَ أصلحك الله. قال الأسدُ: لا بل أنت. أنا الأميرُ، وأنت القاضي. قال الثعلبُ: الحمارُ لك تتغدَّى به، والأرنبُ لك تتفكَّه به ما بينك وبين الليل، والتيسُ لك تتعشَّى به، قال الأسدُ: ويحك يا أبا الحصين، ما أعدلَكَ من علَّمك هذا القضاء؟ قال: علَّمنيه الرأسُ الذي بين

(١) فصل المقال/ ٣٢٧.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٨/٢٤.

يديك. ولكن الشيخ المضروب هو الذي علَّم هؤلاء حتى قالوا ما سمعتَ. فضحك الحجَّاج، ووصل المضروبَ، وخلَّى سبيلَ العامل».

لو ضربتَ التمثيلَ السابق على محكِّ الآراء الأربعة التي رآها أهل البلاغة لوجدته يوافق مذهب الزمخشريِّ لانطوائه على تشبيه الحجَّاج بالأسد، والكاذب المضروب بالذئب، والصادق الحسن التخلُّص بالثعلب. ويوافقُ مذهبَ الجرجاني، لأن وجه الشبه فيه مركَّب غير محقَّق. ومذهبَ الجمهور، لأنهم لا يُثبتون التحقُّق ولا ينفونه.

ونحن ههنا لا يعنينا أن يوافق التمثيلُ مَنْ يوافق، ويخالف مَنْ يخالف، وإنما يَعْنينا ما فيه من جمال، شأى به المثلَ المجرَّد، وبزَّه، حتى كاد يُخمله،وهذا الجمالُ تجلَّى في عناصر: منها الأقصوصةُ الأسطورية بأحداثها وشُخوصها وحبكتها وخاتمتها وحوارها الحيِّ المترابط.

وثانيها أن وجه الشبه- وهو القصَّةُ- مركَّب، انتزعت عناصرُه من متعدّد، حافل بالتشخيص والحركة والتلوين والمفاجأة والتشويق.

وثالثها أن التمثيل انطوى على تحليلٍ نفسيٍّ عميق ارتقى بالقصة الحيوانية إلى مرتبة النوازع الإنسانية، إذ حلل من الأمير ظلمه وزهوه في البداية، وندَمه وعفوَه في النهاية، ومن الشهود تهوُّر الكاذب المتملِّق وعقابه، واتعّاظَ الصادق ونجاته، وهذه العناصر كافيةٌ لتفضيل التمثيل، وتسويغ ما أحاطه به أهلُ البلاغة من إعجاب.

د- معاني الأمثال ومضاربها

يشقّ على الدارس أن يسلك الأمثال في أبواب وفصول تنتظمها، لكثرتها، وتعدد أفكارها، وترادف بعضها وتميز المترادفات بعضها من بعض بأفكار فرعية،قد تفرد الأخ عن أخيه، لمعنى فيه. ولهذا خطر لنا أن ندرسها مصنفة على ضوء التصنيف القديم، فقادنا الاستقرار إلى ضربين أساسين من الترتيب.

أولهما وجدناه في كتاب «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» لأبي عبد الله بن عبد العزيز البكري [ت: ٤٨٧هـ] فالأمثال في هذا الكتاب مصنفة تصنيفاً فكرياً على المعاني والمضارب: أولها «في حفظ اللسان» وثانيها

«في معايب النطق» وعاشرها «في أهل الألباب والحزم» وآخرها- وعدتها عشرون باباً- في «اللقاء وأوقاته». وهذا التصنيف على جودته قد لا يفي بحاجة القارئ الذي يحفظ الأمثال ولا يعرف مضاربها، لأن المثل الواحد أحياناً يصلح لمضربين، فيحار القارئ أين يظفر بطلبته.

وثانيهما اتَّبعه جارُ الله محمود بن عمر الزمخشري [ت:٥٣٨هـ] في كتابه «المستقصى» إذْ رتب ما جمع من أمثال على حروف المعجم «أ، ب، ت، ث....» وفي هذا الأسلوب من الوفاء بالغرض لمن يحفظ الأمثال مثلُ ما فيه من الإرباك لمن لا يحفظُها، إذْ لا ينتفع به إلَّا مَنْ يعرف المثل، ويجهلُ مضربه، فينتجع الكتاب لكي يوثق ما يعرف، ولا ينتجعه لكي يعلم ما لا يعلم.

يخيل إلينا أن طريقة البكري أجدى في العصر الحديث من طريقة الزمخشري، لضؤولة محفوظنا من الأمثال، ولاعتمادنا على المطبوع فوق اعتمادنا على المسموع، فنحن لا نجهل مضارب الأمثال وأخبارها وقصصها وحسب، وإنما نجهل الأمثال ومضاربها، والنصوص ومعانيها والمضارب ودواعيها. ولذلك آثرنا طريقة البكري. وهبنا آثرناها - على علاتها وهنواتها - فإننا سنجد أمامنا أبواباً لانستطيع الإحاطة بها، وبما يتفرّع عن كل باب من فصول، وما ينطوي عليه كل فصل من أمثال، وما في الأمثال من أفكار. فقد تحدّرت إلينا عن العصر الأموي أمثال وفيرة، تناولت أفكاراً كثيرة، ولخصت تجارب عديدة، وأحاطت بأمور الدنيا والدين، والرجال والنساء، والصداقة والأصدقاء، وآداب السلوك، والجهل والعلم، والسفه والحلم، والمناقب والمثالب، والتنسُّك والتهتك. وكثرتها تجبرنا على أن نتخيَّر ولا نستقصي. فما أبرزُ المعاني والمضارب التي انطوت عليها أمثالُ العصر الأموي؟

١- الدين والعقيدة

بقي العصر الأمويّ، على الرّغم من ظهور ثلُّة من المجَّان في المدينة، وثلَّة من المغنين في مكّة، محافظاً على الطابع الديني في الحكم والإدارة وحياة العامة والخاصة، وظلَّ الخلفاء، على ما أُثر عن يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد من كَلَفٍ باللهو، حراصاً أشدَّ الحرص على التزام الإسلام ديناً وعقيدةً، وإيماناً وخلقاً.

تجلَّى ذلك الالتزامُ في أمثال كثيرة أُثرت عن بعض الخلفاء والتابعين من

سراة القوم وعلمائهم، أبرزُهم عمر بن عبد العزيز، وعبد الله بن عباس. وهذه الأمثال تُفصح عن التقوى والتعلُّق بوسطية الإسلام، والإيمان بقضاء الله وقدره، والزهد في المتارف، وإيثار الورع على البدع، والتنسُّك على التمتع بزينة الحياة، ولو كانت حلالاً.

من الأمثال المأثورة عن عمر بن عبد العزيز قولُه[١]: «التقيّ مُلْجَم». قال أبو عبيد البكري[٢]: «ضَرَب اللجام للتقي مثلاً، لأن التُّقى يمنعه من الكلام فيما لا يعنيه كما يمنع اللجامُ الدابة من الأخذ فيما لا يعني راكبها.... وقال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره ما على الأرض شيءٌ أحقُّ بطول سجن من لسان. فجعل عبد الله للسان سجناً، يمنعه من الجهل والزلل كما يُحْبَسُ أهلُ الدعارة في السجون. ومنها قول أنس بن مالك: ما اتقى الله أحد حق تقاته حتى يخزن من لسانه».

ومن أقوال عمر التي ذهبت مذهب الأمثال قولُه لحرَّاسه[٣]: «إنَّ بي عنكم لغنىً. كفَى بالقدر حاجزاً، وبالأَجَل حارساً»، وقولُه[٤]: «في الله تعالى عِوَضٌ عن كلِّ فائت».

ومن الأمثال المأثورة عن عبد الله بن عباس[٥]: «الرخصةُ من الله صدقةٌ». وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه رأى على قبر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فسطاطاً مضروباً، فأمر بنزعه، وقال: «إنما يظله عمله»[٦]. وأنه قال[٧]: «إذا وقع القضاءُ، فليس إلَّا التسليم».

ومن الأمثال الموصولة النسب بالدين وعلومه، وبالورع وحفظ الحديث قولُهم[٨]: «فقهُ العبادلة» يضرب به المثلُ لمن تضلَّع من الفِقه، وبرعَ فيه على

(١) العقد الفريد٣/ ٨١.
(٢) فصل المقال/ ٢١.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٩/ ١١٨.
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ٧٩.
(٥) الإعجاز والإيجاز/ ٣٦.
(٦) مختصر تاريخ دمشق١٤/ ٢٨٦.
(٧) المصدر السابق١٣/ ١٦٧.
(٨) ثمار القلوب/ ٨٨.

ورع، والعبادلةُ هم: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبدُ الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وربما وضعوا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب معهم. ومنها[١]: «زهدُ الحسن»، وهو الحسنَ بن أبي الحسن البصري، و«حفظُ قتادة»[٢] وهو قتادة بن دعامة السدوسي [ت: ١١٨هـ] قال ابن حنبل: «قتادةُ أحفظُ أهل البصرة». ومنها قولُ الشعبي[٣]: «نعم المحدِّث الدفترُ» وقولهم[٤]: «ورعُ ابن سيرين» وقولُ سعيد بن جبير[٥]: «انشر بزَّك حيثُ تُعْرَف». وقصةُ المثل أن ابن جبير لم يكنْ يحدِّث، وهو في أصفهان، فلَمَّا صار إلى الكوفة موطنِه الأوَّل جَعَل يحدِّث، فسئل، فأجابَ السائلَ بالعبارة السابقة التي سارت بين الناس. ومنها[٦]: «إيمانُ المُرجِئ» والمرجئةُ يقولون: إن الإيمانَ قولٌ فرد، لا يزيد ولا ينقص.

٢- السياسة والإدارة

ربَّما كان ميدان السياسة والإدارة أوسعَ الميادين التي اصطخبت في جنباتها أمثالُ العصر الأموي، لأن هذا العصر من بدايته إلى نهايته بقي حافلاً بالأحداث، لا تكادُ فتنةٌ تخبو في إقليم حتى تشتعل فتنةٌ في آخر، ولا يتسنَّى لخليفة أن يقضي على ثائرٍ في ولاية حتى يمردَ وال في أخرى.

هذا الصخبُ السياسيُّ لم يُنطق الخلفاءَ والأمراء والقادة وحدهم بأمثال تلخِّص تجاربهم، بل أنطق الأدباء والبلغاء بأقوال ذهبت مذهب الأمثال، نقدوا فيها وحذّروا، وعبَّروا عمَّا كان يخامر الرعية من كره الظلم. ويلاحظُ من استقراء الأمثال أنَّها كانت تصوِّرُ تطوُّرَ السياسة، وتختلف باختلاف الشخصيّات الحاكمة.

في عهد معاوية طغى على الأمثال اللينُ والدهاء، وحلُّ المعضلات بالتي هي أحسن، لأنَّ أربابها صوّروا ما يعايشون. لقد حرص معاويةُ على أن يورِّث

(١) ثمار القلوب/ ٩٠.
(٢) المصدر السابق/ ٩٠.
(٣) الإعجاز والإيجاز/ ٣٧.
(٤) ثمار القلوب/ ٩٠.
(٥) سير أعلام النبلاء٤/ ٣٢٤.
(٦) ثمار القلوب/ ١٧٣.

وليّ العهد أسلوبه المسالم في الحكم، وحَرَص ولاةُ معاوية في الأقاليم على محاكاته في دهائه، فنسجوا أقوالَهم على منواله، فأتتْ أمثالهم وأمثالهُ من نمط واحد.

بعد أن أخذ معاويةُ البيعة ليزيد بالوعد والوعيد قال[١]: «اسلمي أمَّ خالد، رُبَّ ساعٍ لقاعد، وآكلٍ غير حامد»، فذهب قوله مثلاً. ورُوي عن معاوية قولُه: كنتُ فيَ أطوع جند وأصلحه- يعني أهل الشام- ولذلك ضُرب المثل بهم فقيل[٢]: «طاعة أهل الشام». وذكرت كتب الأمثال أنه: بينا ابن الزبير يسير مع معاوية إذْ غلبت معاويةَ عينُه، فنام. فقال ابنُ الزبير: قد رأيتُك في حال، لو شئت أن أقتلك قتلتك، فقال له معاوية قولةً ذهبت مثلاً، وهي[٣]: «إنما يقتل كلُّ طير شبهَه». وأوصى معاوية ولده وصية ذهبت مثلاً، فحواها أن يوادع خصومه ما وجد إلى الموادعة سبيلاً، لأن درء الخطر باللسان أسلمُ من طعنه بالسنان، فقال[٤]: «ادفع الشر عنك ما اندفع».

هذه السياسةُ انتقلت من معاوية إلى أعوانه، وجُلُّهم في مثل دهائه بالفطرة، ومثلِ تجربته بالخبرة. وهم منذ اكتشفوا سرَّه مكروا مكرَه، فأُثرت عنهم أمثالٌ تُجاري أمثاله في الذكاء والملاينة وبعد المرمى. ومنها: «جاءَك من كلِّ طير بريشة»[٥] قاله عمرُو بن العاص لمعاوية في خلافته، وكان معاويةُ قد خلا بالمغيرة بن شعبة وخشيَ عمرٌو أن يكون المغيرة قد أوقع به عند معاوية.

ومنها[٦]: «النَّبْعُ يَقْرَعُ بعضُه بعضاً» علَّق أبو عبيد البكريّ على هذا المثل، فقال: «كان زياد [يعني زياد ابن أبيه الذي ألحقه معاوية بنسبه] على البصرة، والمغيرةُ بن شعبة على الكوفة. فتوفي المغيرة، فخاف زيادٌ أن يوليَ معاويةُ مكانه عبدَ الله بن عامر - وكان لذلك كارهاً - فكتب إلى معاوية يخبره بوفاة المغيرة، ويشيرُ عليه بولاية الضحاك بن قيس مكانه، ففطن له معاويةُ، وعلم

(١) مجمع الأمثال١/ ٣٠٠.
(٢) ثمار القلوب/ ٥٤٦.
(٣) تمثال الأمثال١/ ٣٤١.
(٤) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ١٩٢.
(٥) المصدر السابق ٢٥/ ١٧٣.
(٦) فصل المقال/ ١٣٥.

ما أراد، فكتب إليه: قد فهمتُ كتابك، فأفْرِخ رَوْعَك أبا المغيرة. لَسْنا نستعملُ ابنَ عامر على الكوفة، قد ضَمَمْناها إليك مع البصرة. فلمَّا وردَ الكتاب على زياد، قال: «النبعُ يقرعُ بعضُه بعضاً» يثبتُ بذلك زيادٌ نسبَه في بني حرب، وأنه ومعاوية من نجار واحد، يفهمُ كلٌّ واحد منهما غرض صاحبه ومغزاه. والنبعُ من أفضل العيدان وأصلبها. وأكرمُ القِسيِّ ما كانَ من النبع».

وبعدَ فاجعة الحسين ﷺ، وفتنةِ المختار الثقفي، وثورةِ عبد الله بن الزبير أخذت الأمثالُ تؤثر الشدةَ على اللين، والبطشَ على العفو، والغضبَ الثائر على الحزن الهادئ، سواءٌ منها ما صدر عن الخلفاء وأتباعهم، وما صدر عن الثائرين وأشياعهم.لأن أنواءَ السياسة كانت إلى العَصْف والقصف أقربَ منها إلى المسامحة والمصالحة.

خاض جلساءُ عبد الملك يوماً في مقتل عثمان، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، في أيِّ سنيكَ كنت يومئذ؟ قال: كنت دون المُحْتَلم. قال: فما بلغ من حزنك عليه؟ قال[١]: «شغلني الغضبُ له عن الحزن عليه». ويلتقي بهذا المثل في الشدَّة، ويضيف إلى الشدة التهديدَ قولُ عبد الله بن الزبير في تقريع من خذلوه من أنصاره[٢]: «أكلتم تمري، وعصيتم أمري». وقولُ عكرمة مولى ابن عباس في الانتقام من الظالم[٣]: «وقع الكلب على الذئب».

ومِثْلُه المثلُ المأثور عن عبيد الله بن زياد [٤]: «أبدى الصريح عن الرغوة».قال البكريُّ في شرح هذا المثل: «هذا المثلُ لعبيد الله بن زياد، قاله لهانىء بن عروة المرادي. وكان مسلم بن عقيل بن أبي طالب قد استخفى عنده أيام بعثه الحسين بن علي. فلمَّا بلغ مكانُهُ عبيدَ الله أرسل إلى هانىء، فسأله، فكتمه، فتوعَّده وخوَّفه، فقال هانىءٌ حينئذ: فإنه عندي. فعندها قال عبيد الله: أبدى الصريحُ عن الرغوة. ظاهرُ اللفظ في هذا المثل أنه مقلوبٌ، والرغوة تُبدي عن الصريح، أي تنكشف عنه، لأنها فوقه. ولا يجوز أن ينكشف الصريح عن الرغوة، والرغوة تعلوه».

---

(١) البيان والتبيين٢/ ٣٥.
(٢) المختار من نثر الدرر٢/ ١٣٧ .
(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٣٧٣.
(٤) فصل المقال/ ٦٠، ومجمع الأمثال١/ ١٠٣ .

ومن هذا الضرب: «إنه لأَصْبرُ من ذي الضاغط»[١]، الضاغطُ البعير الذي حزَّ مرفقُه جنبه. قاله سعيد بن أبان، وقد قدم لتضرب عنقه أيام عبد الملك بن مروان. ومنه أيضاً[٢]: «أصبرُ من عَوْدٍ بدَفَّيهِ الجُلَبُ» الدفَّان: الجنبان، والجُلَبُ: آثار الدَّبَرِ، والعَوْدُ: البعير المُسِنُّ. قاله حَلْحَلَةُ بنُ قيس بن أشيم الفزاري، وقد قُدِّمَ لتُضْرَب عنقه في أيام عبد الملك. ومنه أيضاً مثل قاله أبو السائب المخزومي يدلُّ على الحزم المفضي إلى الغشم: «آخذُ البريءَ حتى يقع النَّطِفُ»[٣]. ولك أن تردّ على هذه الإدارة الجائرة بمثلٍ قاله جعفرُ بن محمد الصادق[٤]: «إنَّما الذليلُ مَنْ ظَلَم».

ومما ينحو نحو السخر بالسياسة الباطشة، والإدارة الجائرة أمثال فيها من النقد والحذر مثل ما فيها من التملق للأمراء للظفر بالعطاء. ذكر ابن خلكان مثلين من هذا النمط نسبهما إلى عيسى بن عمر، فقال[٥]: «لمَّا أصبح يوسفُ بن عمر أميرَ العراقين.. بعد خالد بن عبد الله القسري تتبَّع أصحابَه. وكان بعضُ جلسائه قد أَوْدَعَ عند عيسى بن عمر المذكور وديعةً، فنمي الخبرُ إلى يوسف. فكتبَ إلى نائبه بالبصرة يأمره أن يحمل إليه عيسى بن عمر مقيداً، فدعا به، ودعا حداداً، وأمر بتقييده. فلمَّا قيَّده قال له الوالي: لا بأس عليك، إنما أرادك الأمير لتأديب ولده. قال: فما بال القيد إذن؟» فبقيت هذه الكلمة مثلاً بالبصرة، فلمَّا وصل إلى يوسف سأله عن الوديعة، فأنكر، فأمر بضربه. فلمَّا أخذهُ السوطُ جزع فقال: «والله إن كانت إلّا أُثَيَّاباً في أُسَيْفاطٍ قبضها عشَّاروك» فذهبت قولتُه مثلاً».

ومن الضرب المتملِّق مَثَلٌ شاع في الشام لاحتلاب العطاء من الأمراء، وهو[٦]: «عَيْرٌ بعيرٍ وزيادة عشرة». رواه أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، وقال في تفسيره: «هذا مثل لأهل الشام خاصة، وأصله أن خلفاءهم

(١) فصل المقال/ ٤٩٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تمثال الأمثال ١/ ١٤٦. والنّطف: المُتّهم.
(٤) المختار من نثر الدرر/ ١٥٣.
(٥) وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٨.
(٦) مجمع الأمثال٢/ ١٣.

كلما مات منهم واحد، وقام آخر زادهم عشرة في أعطياتهم». والعَيْرُ هنا: السيّد. وما شذَّ عن هذه العادة إلّا يزيد بن عبد الملك، إذ نَقَصهم، ولم يزدهم.فسمّوه: يزيد الناقص.

وأجمل الأمثال السياسية ما انطوى على مجابهة السلطة المتنمرة للفتك بالأجوبة المحيِّرة للعقل. ومنها مَثَلان أفحم بهما الغضبانُ بن القَبَعْثَرى الحجَّاج بن يوسف. وهما[١]: «مَنْ يكُ ضيفَ الأمير يسمنْ» و«أو فَرَقٌ خيرٌ من حُبَّيْن». قال أبو عبيد البكري في شرحهما: «كان الحجّاج قد حبس الغضبانَ بن القَبَعْثَرىَ، فدعا به يوماً، وقال: زعموا أنه لم يكذب قطُّ، وليكذبنَّ اليوم. فقال له لما أُتيَ به: سمنتَ يا غضبانُ!! قال: القيدُ والرتعة، والخفضُ والدعة، وقلة التعتعة. «ومن يك ضيفَ الأمير يسمن». قال أوَتُحِبُّني يا غضبانُ؟ قال: «أو فَرَقٌ خيرٌ من حُبَّيْن». وأماَّ قولهُ: أتحبُّني يا غضبان؟ فإنما أراد الحجَّاج أن يكذّبه لو قال: أحبُّك، أو يعاقبهُ لو أنكر ذلك، فحادَ عن الجوابين.. فأتى بحرف الشك «أو» الذي لا يخلص بين أحد المعنيين» والفرق: الخوف، ومعناه هنا: هيبةُ الحجاج. ومما يدلك على ذكاء الغضبان وحسن تخلصه أن الحجاج قال - والرواية للميداني-[٢]: «فرق أنفع من حب».

ومن حسن التخلُّص المضمَّخ بالوفاء مَثَلٌ أطلقه عامرُ بن حطَّاب الخارجيّ، وهو قولُه[٣]: «غلَّ يداً مُطْلقُها، وارتهنَ رقبة مُعْتقها». «وكان الحجَّاج قد ظفر به، ثم عفا عنه. فقيل له: عُدْ إلى قتال الفاسق، فالله أطلقك، فقال ما قال».

٣- المال

مهما يشغل الدينُ الناس عن الدنيا، ومهما تطْغَ السياسةُ على الأدب، فأصداءُ المال - وهو دمُ الحياة وعصبُها - لا تخفتُ في الحناجر، وأضواؤه لا تبهتُ في المحاجر. لقد حفل العصر الأمويّ بأمثال أدارها أربابُها حول محاور كثيرة، أبرزُها البخلُ والكرم، والتبلُّغ باليسير والجشع، والتعفُّف

(١) فصل المقال/ ٥٣.
(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٧٦.
(٣) غرر الخصائص الواضحة/ ٣٨١.

والإلحاف في المسألة، والإخلافُ في الوعد، واقتضاءُ الدين، والسرقة إذا تعذر الكسب الحلال.

تحدث ابنُ عساكر عن مثل أطلقهُ الوليدُ بن يزيد، هو: «الجود بذل المجهود» فقال[١]:

«خرج الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك يتصيَّدُ مع الحسين بن عبيد الكلابي. فانفردا عن الناس، وانقطع الناس عنهما، وتعالى النهار، وجاعَ الوليد، فمالا نحو قرية، فوجدا رجلاً فاستطعماه. فجاء بخبز شعير وربيثاء وزيت وكرَّاث. فأكلا، فقال الحسين بن عبيد:

إنَّ مَنْ يطعمُ الربيثا مع الزيـ ـت بخبز الشعير والكراث..
لحقيقٌ بلطمة، أو بثنتيـ ـن لقبح الصنيع أو بثلاثٍ

فقال الوليد: اسكت، قبَّحك الله فإن الجودَ بذلُ المجهود».

ومن الأمثال التي نجمت عن أفضل الفضائل، وهي الشجاعة، وأرذل الرذائل، وهي الطماعة، قولُ الفرزدق[٢]: «رأسٌ برأس وزيادة خمس مئة». روى الميداني قصته، فقال: «أولُ من تكلّم به الفرزدقُ، وذلك أن صاحب جيش قال: من جاءني برأس فله خمس مئة درهم. فبرز رجل وقتل رجلاً من العدوّ، فأعطاه خمس مئة درهم. ثم برز ثانيةً،فقُتل، فبكى أهلُه عليه، فقال الفرزدق قولته».

ومن الأمثال التي تحقر الإخلاف بالوعد، والمطل في قضاء الدين قول أهل المدينة «أمطلُ من عقرب»[٣].

قال الميداني في شرحه: «من أمثال أهل المدينة. وعقرب: اسم تاجر من تجارها، وأكثر من هناك تجارة، وأشدّهم تسويفاً، وكان زمن بني أمية». ويقال أيضاً: «أتجر من عقرب»[٤].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١١٠.
(٢) مجمع الأمثال ١/ ٢٩٠.
(٣) مجمع الأمثال ١/ ١٤٧.
(٤) المصدر السابق.

والإمعان في المطال يذكّرك إدمان السؤال، والإلحاف في الطلب. ومن أمثالهم في هذا الباب: «أَسْأَلُ من قرثع»[١]، وقرثع هذا رجلٌ من بني ثعلبة كان على عهد معاوية بن أبي سفيان.

وأشنع من ذلك كله أن يجتمع في رجل واحد تسويف عقرب، وإلحاف قرثع، فيغدو مضرب المثل المأثور عن عون بن عبد الله، ونصه: «إذا سأل ألحف، وإن سئل سوَّف»[٢] ومنها: «ليست حفصةُ من رجال أمِّ عاصم»[٣] وقصَّته كما رواها ابن عساكر:

«مرَّت أمُّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وهي في طريقها إلى زوجها عبد العزيز بن مروان، برجل به خَبَلٌ. فتعرَّض لها، فأعطته، وأحسنتْ إليه. ثم مرَّتْ به بعدها حفصةُ بنت عاصم بن عمر، فتعرض لها، فلم ترفع به رأساً. فسئل: أين حفصةُ من أمِّ عاصم؟ فقال: ليست....».

ومنها قولُ صعصعة بن صوحان: «من أجدب انتجع»[٤] قاله لمعاوية بن أبي سفيان. وهو في غاية الإيجاز والإبداع.قال الميداني فيه: «يضرب للمحتاج، فيقال: اطلبْ حاجتك من وجه كذا».

وربما حملت الحاجة طالبها على ركوب المهالك، كأن يشقَّ عليه دَرْكُ الحلال، فينتجع الحرام. ومنه قول من قال: «إذا قلّ ذات اليد سخت النفس بالمتالف»[٥]. قال ابن كثير في توضيحه: «قاله رجل سرق، فأُتي به الحجَّاج، فقال له: لقد كنتَ غنيّاً أن تكسب جناية، فيؤتى بك إلى الحاكم، فيبطل عليك عضواً من أعضائك. فقال الرجل قولته» فذهبتْ مثلاً.

٤- الصداقة

ما قيل في المال حلالهِ وحرامهِ، وبذلهِ واحتجانهِ يتَّصلُ بعضَ الاتصال بالصداقة والصديق، فقد يوثّق الكرمُ المودَّةَ، ويرسّخ التآخي، ويحثُّ الآخذَ على

(١) المصدر السابق ١/ ٣٤٧.
(٢) المصدر السابق١/ ٢٩.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٩/ ٩٥، وفي مجمع الأمثال٢/ ٢٠٣ " ليت حفصة..." .
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ٣٢١.
(٥) البداية والنهاية٩/ ١٢٧.

شكر المعطي، لأن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى. ورد هذا المعنى في مَثَلين مختلفين في البداية والنهاية، مؤتلفين في الغاية، وفحواهما أن البذل يقتضي الشكر. أوّلُهما لعلي بن الحسين، ونصُّه: «لقد استرقَّك بالودِّ، من سبقك إلى الشكر»[١] والثاني لبلالِ بنِ سعد الأشعري، ونصُّه: «من سبقَك بالودِّ، فقد استرقَّك بالشكر»[٢]. وترجيح أحد النصين على الآخر لا يغيِّر شيئاً من جوهرهما، وهو ارتباطُ الإحسان بالشكر، والاسترقاق المعنوي بالإنفاق الماديّ.

ومن الأمثال التي نَحَتْ هذا النحو فيما أفضت إليه، لا فيما تعنيه، قولُ أبي الأسود الدُّؤَليّ[٣]: «رُبَّ مملولٍ لا يُسْتطاع فراقُه». قال أبو عبيد البكريّ في شرح المثل، وفيما نجم عنه: «دخل أبو الأسود الدُّؤَليّ على بعض إخوانه، فرأى عليه ثوباً قد خَلَقَ، فقال له: يا أبا الأسود، أما آن لهذا الثوب أن يُبَدَّل؟ فقال: «رُبَّ مَمْلولٍ لا يُستطاع فراقُه». فبعث إليه صديقُه بعدة أثواب، فقال أبو الأسود يمدحه:

كساكَ، ولم تَسْتَكسهِ، فشكرتَه أخٌ لك يُعْطيك الجزيلَ وناصرُ
وإنَّ أحقَّ الناس - إن كنت شاكِراً- بشكرك مَنْ أعطاكَ، والعرضُ وافر»

وترسيخُ الصداقة على أُسس ثابتة، يقتضي الوِفاق بلا نفاق، والنقدَ بلا جرح لنفي التَّفَث عن المودَّة. وإلى هذا المرمى اتَّجه مثلٌ ضربه عمرُ بن عبد العزيز، إذْ قال: «رحم الله مَنْ أهدى إليَّ عيوبي». والصديقُ الوفيُّ عَوْنٌ لأخيه على مصائب الدهر. تضمَّن هذا المعنى مثلٌ قاله مالكُ بن مسمع لعبيد الله بن زياد بن ظبيان، ونصُّه[٤]: «هو أوثقُ سَهْم في كنانتي». قال الميداني في شرحه: «يُضْرب لمن تعتمده فيما ينوبك».

٥- الفساد

إن اصطراع الخير والشرّ، والإصلاح والإفساد معركةٌ مستمرَّة، وقتالٌ سجال لا ينتهيان. فكلَّما قُلّمت أظافر الفساد طالت، وكلما خبت نار الفتن

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٢٥٥.
(٢) البصائر والذخائر ٨/ ٣٣.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ٩، وتمثال الأمثال ٢/ ٤٤٠، وفصل المقال/ ٣٦٧.
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٩.

هبَّت عليها رياحُ المصالح فأثارتها وسعَّرتها. والعصرُ الأمويُّ شهد أنماطاً من هذا الاصطراع في ميادين السياسة والاجتماع، سعى أولو الأمر إلى إخمادها بالقوة حيناً وبالحكمة حيناً، وأسهم في هذا المسعى أهل الرأي بأقوال صوَّرت ما شهدوا، ولخَّصت ما كابدوا، فكانت هذه الأمثال.

حينما هاجت الفتنة في البصرة بعد موت يزيد بن معاوية عقد الأحنفُ بن قيس الرايةَ لعبس بن طلق بن ربيعة، فحمل الناس مسلكه على محمل الفساد والرعونة، وكرهوا أن ينسبوا إليه الخفة - وهو من أحلم العرب وأحكمهم - فنسبوا الخفة فيما صنع إلى أَمَةٍ له تدعى زبراء، فقالوا[١]: «هاجت زبراء» فذهب قولهم مثلاً، يُضرب عند هيجان الشرّ، واستشراء البلاء.

وتنمرت الصعلكة في العصر الأموي بعدما خمدت في عصر النبوة والخلافة الراشدة. وحمل رايتها لصّ فاتك من بني ضبة، اسمه «شظاظ» كان قريناً لأبي حردبة ومالك بن الريب، فقبض عليه الحجاج وصلبه بعدما ذاعت شهرته، واستشرى فسادُه، وضُرب به المثلُ فقيل: «ألَصُّ من شِظاظ»[٢].ومن أخبار شظاظ وأمثالِه أنه أغارَ على قوم فاطَّرَدَ نعَمَهم، فساقها ليلته حتى أصبحَ، فقال رجلٌ من أصحابه: لقد أصبحنا على قَصْدٍ من طريقنا، فقال شِظاظ: «إنَّ المُحسن مُعان»[٣] فذهب قولُه مثلاً.

ومن هذا الضرب قولُ الفرزدق بعد أن طلَّق زوجته النوار وندم: «كفاقئ عينيه عمداً»[٤]. وقولُ الوليد بن عتبة[٥]: «كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ» يُضْرَب للأمر الذي قد فَسَد، فليس بعده إصلاحٌ. وقولُ سارية بن عويمر العقيلي[٦]: «الليلُ أخفى للويل». قاله سارية بعد أن اقتتل همام بن مطرف وتوبة بن الحُميِّر، واقتصَّ توبة من مطرف تحت جنح الليل. وروى أبو عبيد البكريُّ خبر المثل مفصَّلاً في كتابه.

وبلغتنا عن العصر الأموي أمثال انتقدت من حاول أن يصلح فأفسد، وأن

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢/ ١٤٣.
(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٢١، وفي مجمع الأمثال ١/ ٣٤٧ " أسرق ".
(٣) البيان والتبيين ٢/ ٣٢١.
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ١٦٤.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٥٠.
(٦) فصل المقال/ ٦٥، ومجمع الأمثال ٢/ ١٩٣.

يحسن فأساء، فأصبح الناس كالمستجير من الرمضاء بالنار. ومن هذه الأمثال: «بدلٌ أعور»[١] نسب إلى أهل خراسان وشرحه الميداني، فقال: «لما صُرف يزيد بن المهلب عن خراسان بقتيبة بن مسلم - وكان شحيحاً أعور- قال الناس: «بدلٌ أعور» فصار مثلاً لكل من لا يرتضى بدلاً من الذاهب».

ولك أن تلحق بهذا الضرب ما يقال في تكرير الخطأ الذي يقتضي الاعتذار، وقبول التوب عن الذنب. ومن هذا الباب قول الحارث بن خراز[٢]: «ليس لرجل لدغ من جحر مرتين عذر». وقول عبد الملك بن مروان[٣]: «إذا عُرِفت الحَوْبة، قُبلتْ التَّوْبة».

٦- الأخلاق

ربَّما كانت الأخلاقُ: مكارمُها ومساوئُها، وما طُبِع عليه الإنسانُ منها وما تطبَّعَ، وما وُهِبَ منها وما اكتسب أوسعَ الآفاق التي حلَّقت فيها الأمثالُ في كلِّ عصر من عصور الأدب العربيّ، لا في العصر الأمويّ وحدَه. وعلَّةُ توفُّر الحكماء على القول فيها أكثرَ من القول في سواها اضطرارُهم أحياناً إلى معاشرة اللئيم مع الكريم، والتنقُّل بين التقي والغَوِيِّ والحصيفِ والسخيف، والماكر والصريح، والفاجرِ والعفيف. وعن العشرة تنجمُ الخبرة، والحكماء متى جمعوا ما اكتسبوا من تجاربَ بالخبرة إلى ما وُهِبوا من مواهبَ بالفطرة كانت الأمثال.

الحسنُ بن عليّ ﷺ قال لعمرو بن الزبير: «سفيهٌ لو يجدُ مُسافِهاً».[٤]وعمرُ بن عبد العزيز وجدَ الاعتذار عن الذنب بالكذب أقبحَ من الذنب نفسه أو مساوياً له في القبح، فقال قولةً ذهبت مثلاً: «إن خصلتين خيرُهما الكذبُ لخصلتا سوء»[٥]. وحكيم بن معية وضع نفسه حيثُ يجب أن توضع حينما أشلاه بنو سليط على هجاء جرير، فأمسك، لئلَّا يوردَه لسانُه مواردَ التلف، فقال[٦]: «لا أكون أوَّلَ من التبأَ لبأَه» شرح الميدانيُّ هذا المثل

(١) مجمع الأمثال ١/ ٩٠.
(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٢٠٨.
(٣) تمثال الأمثال ١/ ١٥٧، والحوبة: الحاجة والهم.
(٤) فصل المقال/ ١٠٢، ومجمع الأمثال ١/ ٣٣٩.
(٥) مجمع الأمثال ١/ ١٣.
(٦) المصدر السابق ٢/ ٢٣٢.

فقال: «يريد: لا أعرِّض نفسي لهجائه، ولا أتحكَّك به. من ألبأت الشاةُ ولدَها: أرضعته اللبأَ». وإن شئت فقل: إنه يُضرب للتوقي من الخطر بالحذر.

وإذا كان حكيم بن معية قد ازدرى سفاهةَ بني سليط حينما أغروه بهجاء جرير لعجزه من مساورته، فإن عمرَو بنَ العاص سخر في مثل آخر من بلاهة يزيد، وأقرّ بذكاء معاوية، حينما قال ليزيد[١]: «ليس هذا من كيسك».

وخبر المثل كما رواه الميداني أن عمرو بن العاص ويزيد بن معاوية دخلا قبر معاوية ليلحداه، فسلَّ يزيد سيفه، وهدّد عمراً بالقتل إن لم يبايعه، فقال له عمرو: «ليس هذا من كَيْسِك»، يعني أنه من مكر أبيه لا من مكره. قال الميداني: «يُضرب لمن يرى منه ما لا يمكن أن يكون هو صاحبه».

ونقيض هذا القول مثل آخر أطلقه عبد الملك بن مروان، وهو: «أمكرٌ وأنت في الحديد»[٢].

ومن الأمثال أقوالٌ حقَّرت التخنُّثَ والتأنُّثَ في الذكور بعد ما شاع الغناء والترف. ومنها قولُ أهل المدينة: «أخنثُ من دلال»[٣]، وكان من مخنَّثي المدينة في خلافةِ سليمان بن عبد الملك. وأقوالٌ أكبرت البطولة والرجولة، وتغنَّتْ بالفخر، ومنها: «أَبْأَى ممَّن جاء برأس خاقان»[٤]. وقصةُ المثل كما أوردها الميداني: «أن ملكاً من ملوك الترك ظهر على أرمينية، وقتل الجرَّاح بن عبد الله عاملَ هشام بن عبد الملك عليها، وغلظت نكايته في تلك البلاد. فبعث إليه سعيد بن عمرو الجرشي، وكان مسلمةُ صاحب الجيش، فأوقعَ سعيدٌ بخاقان، ففضَّ جمعَه، واحتزَّ رأسه، وبعثَ به إلى هشام، فعَظُمَ أثرهُ في قلوب المسلمين، وفخم أمرُه، ففخر بذلك، حتى ضُرب به المثل».

وقد يقترن الفخرُ بالخرق، والكبرُ بالحمق، فتغدو المنقبةُ مثلبةً، يُرمى صاحبُها بالسفه، كأن يقال على سبيل المثال: «أَتْيَهُ من أحمق ثقيف»[٥]، وأحمق ثقيف هو: يوسف بن عمر الثقفي [ت: ١٢٧هـ] أحد الولاة المتجبِّرين،

(١) المصدر السابق ٢/ ١٨٨.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٠٩.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٥٣.
(٤) المصدر السابق ١/ ١١٦.
(٥) المختار من نثر الدرر ٤/ ٧٤.

سلك مسلك الحجَّاج في الأخذ بالشدة والعنف. قال الذهبيُّ في صفته: «كان مَهيباً جبَّاراً ظلوماً». والمثل الواحد قد يجمعُ بين خَصْلتين كسخر جرير بن عطية من صاحبته بقوله: «تجمعينَ خِلابةً وصدوداً»[١]، وقد يقتصر على خصلة واحدة كقول أهل البصرة في نباهة إياس بن معاوية المزني: «أزكن من إياس»[٢]، وإياسٌ هذا - والقولُ للزركليّ -: «أحدُ أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء.. قيل له: ما فيك عيبٌ، غيرَ أنك معجب. فقال: أيعجبُكم ما أقولُ؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحقُّ أن أعجب به».

ومن أمثالهم في الرزانة: «ثَهْلانُ ما يتحلحلُ»[٣]. وفي تعلُّق الشيخ بما شاخ عليه، ورفضه التأديب والنصح: «ما أشدَّ فطامَ الكبير!»[٤]، قاله مالك بن دينار. وفي التعجُّل بالحكم قبل الاستقصاء والتدبُّر: «إنك بعدُ في العَزَاز، فَقُمْ»[٥]، قاله عبيد الله بن عبد الله بن مسعود لابن شهاب الزهري. والعَزَاز الأرضُ الصلبة، وإنما تكون في الأطراف من الأرضين. وفيمن أجَّل، وظن أنه عجَّل: «تَعِسَتْ العَجَلةُ»، قاله فند مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، وكانت أرسلته يأتيها بنار، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر، فخرج معهم فأقام بها سنة، ثم قدم، فأخذ ناراً، وجاء يعدو، فعثر وتبدَّد الجمر، فقال: «تَعِسَتْ العَجَلةُ»[٦].

ومن أمثالهم في سُلطان الشهوة والرغبة على الحقِّ والعقل قولُ عبد الله بن عباس[٧]: «الهوى إلهٌ معبود». وفي عجز الإنسان عن كتمان ما يُبْطن قولُ خالد بن صفوان[٨]: «احترسْ من العين، فوالله لهي أَنَمُّ عليك من اللسان». وفي إطراء الذكاء، واستحسان البيان: «خَطٌّ وافق كلمة»[٩] وقصةُ هذا المثل

(١) مجمع الأمثال ١/ ١٤٢.
(٢) مجمع الأمثال ١/ ٣٢٥.
(٣) تمثال الأمثال ٢/ ٤٠٦، وثهلان جبل ضخم باليمن وقيل بالعالية.
(٤) البيان والتبيين٢/ ٧٩.
(٥) مجمع الأمثال ١/ ٥٢.
(٦) مجمع الأمثال ١/ .١٣٩
(٧) الإعجاز والإيجاز/ ٣٦.
(٨) مجمع الأمثال ١/ ٢٠٤.
(٩) تمثال الأمثال ٢/ ٤٠٦، وفيه "حظ..."، وفي مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ٣٣٥ وقال في الحاشية الصواب: خط.

كما رواها ابن عساكر: «.. أن الحجَّاج لمَّا قُتل عبد الرحمن بن الأشعث بعث برأسِه مع عِرار بنِ شأس الأسدي، فورد على عبد الملك، وأوصل إليه كتاب الحجاج. وجعل عبد الملك لا يسأله عن شيء يشكُّ فيه لمَّا قرأ الكتاب إلا أخبره، فعجب عبد الملك من بيانه وفصاحته مع سواده، فقال:

وإنَّ عِـراراً إن يـكـنْ غـيـرَ واضـحٍ فإني أُحِبُّ الجَوْنَ ذا المنكب العَمَمْ

فضحك عِرارٌ ضحكاً غاظَ عبدَالملك، فقال له: ممَّ ضحكت؟ ويلك! فقال: أتعرف عِراراً يا أمير المؤمنين الذي قيل فيه هذا الشعر؟ قال: لا والله. قال: فأنا والله هو. فقال عبد الملك: خطٌّ وافق كلمة».

٧- أمثال غير مُصَنَّفة

إنَّ الاستقصاءَ بغيةَ الإحصاء مطلبٌ عسير. ولو حَرَصنا على أن نصنِّف كلَّ ما ظفرنا به من أمثال العصر الأموي في فصول ذواتِ عنوانات لطال الباب، وثقل على القارئ. ولهذا آثرنا الانتقاءَ على الاستقصاء، فأتيْنا بأمثال أشتات، إن أعوزها التصنيفُ المُقْنع لم يعْوزها البيانُ الممتع.

كان العربيُّ في العصر الأموي إذا توسَّم الخير بعد الشر، والخَصْبَ بعد الجدب تمثَّلَ بقول أعرابي[١]: «بعضُ البقاع أَيْمَنُ من بعض». وقصَّةُ المثل كما رواها الميداني أن أعرابياً تعرَّض لمعاوية في طريق وسأله، فقال معاوية: مالك عندي شيء. فتركه ساعة، ثم عاوده في مكان آخر، فقال: ألم تسألني آنفاً؟ قال: بلى، ولكنْ: بعضُ البقاع...

وكان أهل المدينة إذا أرادوا إقبال النجح بعد إدباره قالوا: «لقي ليلة كثيِّر بن الصَّلْتِ»[٢]، وفحوى هذا المثل، كما يقول ابنُ عساكر: «أن كثيِّراً كان عليه دينٌ كبير، وألحَّ عليه مروانُ بن الحكم والي معاوية على المدينة، فضاقت به الأرض. ثم جاء كتابُ معاوية بإبرائه منه».

وممَّا يَضرب إلى النُّجح بسبب، ويدلُّ على أنَّ المجدودَ أسعدُ من الجادِّ، وأنَّ الحظَّ المقدَّرَ فوق الجهد المبذول قولُ أبي الزناد[٣]: «كفٌّ من حظٍّ خيرٌ

(١) مجمع الأمثال ١/ ١٠٦.
(٢) مختصر تاريخ دمشق٩/ ٢٩.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٤٢.

من جراب من علم». قال ابنُ عساكر في توضيح هذا المثل: «كان أبو الزناد عبدُ الله بن ذكوان، وربيعةُ بن أبي عبد الرحمن فقيهَيْ المدينة. وكان أبو الزناد أفقهَ من ربيعة، والناسُ مقبلون على ربيعة، فسُئِل عن ذلك، فأجابَ: كفٌّ من حظ...». ويقربُ من المثل السابق كلمةٌ قالها عبدُ الله بن الزبير لعبد الله بن عباس، فذهبتْ مثلاً، وهي[١]: «غَثُّك خيرٌ من سمين غيرك». وقول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة[٢]: «في اللُّدود راحة المفؤود» يضرب للمحزون يستريح إلى قول الشعر وإنشاده. واللدود ما يُصَبُّ من الأدوية في أحد شقيْ الفمّ.

وإذا كان الفألُ قد بزغ في الأقوال السابقة، فتيمَّن بها من تيمَّن، فإن أمثالاً أخرى اربدَّ فيها الشؤمُ، فتطيَّرَ بها من تطيَّرَ، لانطوائها على الخيبة والإخفاق. ويغلبُ على الظن أن هذا الضرب من الأمثال يصوِّر اليأس الذي طغى على أربابها أواخرَ العصر الأموي. ومنها قولُ مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين: «إذا انقضت المدَّة، لم تنفع العدّة»[٣] وقوله أيضاً: «أيامُ القدرة وإن طالت قصيرة، والمتعةُ وإن كثرت قليلة»[٣]. وقول سعيد بن جبير[٤]: «ليس في كل حين احلِبْ فاشربْ» بصيغة الأمر. ذكر أبو عبيد قصة المثل فقال: «حدَّثنا حمَّاد بن زيد، حدثنا أيوب قال: حدثنا سعيدُ بن جبير يوماً حديثاً أعجبنا. فاتبعته، فقلت: الحديث الذي حَدَّثْتناه أَعِدْه عليَّ. فقال لي: «ما كلُّ ما تشاءُ احلِبْ فاشربْ». وقال الميداني في شرحه: «ليس كلُّ دهر يساعدُك، ويتأتَّى لك ما تطلب».

ومن الأمثال التي يطوفُ بها طائف من شؤم وصدٍّ قولُ أهل البصرة: «لا أفعلُ كذا حتى يؤوبَ المثلِّم»، والمثلِّم رجلٌ كان زمنَ الحجاج قتلَ أحد الخوارج، فاحتالوا عليه حتى قتلوه. ومنها[٥]: «حتى يجيءَ نشيطٌ من مَرْو». ونشيطٌ هذا كان غلاماً بنَّاءً، بنى داراً لزياد ابن أبيه، وهربَ قبل أن يتمَّها. ومنها: «حتى يرجعَ مَصْقَلةُ من طبرستان»[٦]، وهو مصقلة بن هبيرة الشيباني

(١) المصدر السابق ١٢/ ١٧٥.
(٢) تمثال الأمثال٢/ ٤٧٨.
(٣) الإعجاز والإيجاز ٧٥-٧٦.
(٤) فصل المقال/ ٢٨٣، ومجمع الأمثال ٢/ ١٩٠.
(٥) مجمع الأمثال ١/ ٢١٥-٢١٦.
(٦) مختصر تاريخ دمشق ٢٤/ ٣٣٩.

البكري [قتل: ٥٠هـ] ولّاه معاوية فتح طبرستان، فأوغل فيها وكمن له أعداؤه فقتلوه وهو عائد.

ومن أمثالهم في النساء قولُ عبد الملك بن مروان[١]: «أرى النساء يذهبُ بهن المهور» وخَبرُ المثلِ كما رواه ابن عساكر أن عبد الملك خطَبَ زينب بنتَ عبد الرحمن المخزومية، ونافسه فيها رجل من أهل بيته. فقال لها ذلك الرجل: أصدقك عشرين ألف دينار، فتزوجته، وتركت عبد الملك. ومنها قولٌ ذمّ فيه الفرزدق تشبّه النساء بالرجال، فقال[٢]: «إذا صاحت الدجاجة صياح الديك، فلتذبح».

وقالوا في الشيء إذا ساوى ما وقع إزاءه: «باءت عَرارِ بكحل[٣]». قاله عبد الله بن الحجاج الثعلبي. شرح القولَ ابنُ منظور في اللسان [كحل] فقال: «من أمثالهم: باءت عَرارِ بكَحْل، إذا قُتِل القاتل بمقتوله. يقال: كانتا بقرتين في بني إسرائيل، قُتِلتْ إحداهما بالأخرى». ومن هذا القبيل، أو ممّا يقاربه في التشابه بين النظيرين مثل أطلقه عبيد الله بن زياد بن ظبيان، حين قال له عبد الملك بن مروان: إنك لا تشبه أباك. فقال عبيد الله[٤]: «أشبه من التمرة بالتمرة، والبيضة بالبيضةِ، والماء بالماء».

٨- أوجز الأمثال

حفلت كتبُ الأمثال بعبارات موجزة غايةَ الإيجاز. مَنْ قرأها منتزعةً من أصولها لم يخرجْ منها بطائل، لأنَّ كلَّ مثل منها ليس أكثرَ من مضاف ومضاف إليه، أي هما نصفُ جملة من كلمتين حوَّلهما الإيجاز إلى لغز من الألغاز. وهَبْك جعلت المثل خبراً لمبتدأ محذوف، فإن هذا المبتدأ سواءٌ أذكر أم قُدِّر لا يُزيل اللبس. ولهذا لم نجد بدّاً من أن نشفع كلَّ مثل من هذه الأمثال الموغلة في الاختزال بشرح يوضّحه:

- «بيت عاتكة»[٥]: يُضرب مثلاً للموضع الذي يُعْرِض عنه البصر، ويميل إليه

(١) المصدر السابق ٩/ ١٧٥.
(٢) مجمع الأمثال١/ ٦١.
(٣) المصدر السابق ١/ ٩١، وقال: يضرب لكل مستويين يقع أحدهما بإزاء الآخر.
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٨٦.
(٥) ثمار القلوب/ ٣١٦.

القلبُ، أُخذ هذا المثل من بيت للأحوص - واسمُه عبد الله بن محمد [ت: ١٠٥هـ]- وهو قولُه يتغزل بعاتكة بنت يزيد بن معاوية:

يا بيتَ عاتكة التي أتعزَّلُ حذَرَ العِدى، وبه الفؤادُ موكَّلُ

- «رُغْفانُ المعلم»[١]: يُضرب للاختلاف، لأنَّ أرغفة المعلم تختلف باختلاف آباء الأولاد في الغنى والفقر والجود والبخل. استُخلص من هجاءٍ قيل في الحجاج، وكان معلماً للصبيان قبل أن يُوَلَّى الإمارة جاء في هذا الهجاء:

أينسى كليبٌ زماناً مضى وتعليمَه سورةَ الكوثرِ
رغيفاً له فلكةٌ ما ترى وآخَرَ كالقمر الأزهرِ

- «طواعين الشام»[٢]: ذكرَ أبو الحسن المدائنيّ عن أشياخِهِ، عن الحجَّاج أنه كان يقولُ: لَمَّا نزلت الأشياء منازلها قالت الطاعة: أنا أنزل الشام، فقال الطاعون: وأنا معك. ولم تزل الشام كثيرة الطواعين حتى صارت تواريخ. وكانت تظهرُ بالشام، ثم تمتدُّ إلى العراق.
- «دماميلُ الجزيرة[٣]»: أُخِذَ هذا المثلُ من بيتٍ قاله عبدُ الله بن همَّام السلوليّ في هجاء رجل من الشرط، وهو قوله:

تراه إذا يمضي يحكُّ كأنما به من دمامِيلِ الجزيرة ناخسُ

وكانت الدماميل في الجزيرة كالحمّى في الأهواز.

- «تفَّاحةُ القلب»[٤]: قاله معاويةُ حينما دخل عليه عمرُو بن العاص، وعنده ابنتُه، فسأله عنها: من هذه يا أميرَ المؤمنين؟ فأجاب: تفَّاحةُ القلب.
- «شجَّةُ عبد الحميد»[٥]: صاحب الشجة عبد الحميد بن عمر بن الخطاب، كان من أجمل الناس في زمانه، شُجَّ وجههُ فلم تزده الشجة إلّا جمالاً، فضُرب بها المثل في حُسْن القبح.

---

(١) ثمار القلوب/ ٢٤٣
(٢) المصدر السابق/ ٥٤٦.
(٣) المصدر السابق/ ٥٥١.
(٤) المصدر السابق/ ٣٤١.
(٥) المصدر السابق/ ٩٥.

- «عينُ الرضى»[١]: يُضرب مثلاً للتغاضي عن هفوات المحبوب وسيِّئاته، أخذ من بيت عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب:

فعينُ الرضا عن كلِّ عيب كليلةٌ ولكنَّ عينَ السخط تُبدي المساويا

ومن عجز البيت اقتُبِسَ مثلٌ آخر، فقيل: «عين السخط».

- «ثَدْيُ اللؤم»[٢]: مصدر المثل بيتٌ قاله أوس بن مغراء، ومضربه انتقالُ الرذائل بالوراثة، وهو قوله:

يشيبُ على لؤم الفعال كبيرُها ويُغْذَى بثدي اللؤم منها وليدُها

- «سيف الفرزدق»[٣]: يُضرب مثلاً لكلال السيف في يد الجبان. وسببه أنَّ الفرزدق ضرب عنقَ أسير في حضرة سليمان بن عبد الملك، فنبا السيف، ولم يفعل شيئاً.

- «بناتُ نصيب»[٤] هن بناتُ الشاعر نُصيْب بن رباح [ت:١٠٨هـ] كان شاعراً فحْلاً أسود شديد السواد أمسك بناته أن يزوِّجهن الموالِيَ، وصدَّ العربُ عنهن، فَبُرْنَ. فقيل له: «ما حالُ بناتِك؟ فقال: صَبَبْتُ عليهن من جِلْدي فكسدْنَ عليَّ. قال الثعالبيُّ: وصِرْن مثلاً للبنت يضِنُّ بها أبوها، فلا يرضى من يخطبها، ولا يرغب فيها مَنْ يرضاه لها، وعناهن أبو تمام بقوله:

كانت بناتِ نُصَيْبٍ حين ضنَّ بها عن الموالي، ولم تحفلْ بها العربُ

- «سراويلُ قيس»[٥]: يُضرب مثلاً للضخامة والجسامة. قال الثعالبي: «بعثَ قيصر إلى معاوية بن أبي سفيان بعلج من علوج الروم طويل الجسم، معجب بكمال خلقته، وامتداد قامته. فعلم معاوية أنْ ليس لمطاولته إلَّا قيسُ بن سعد بن عبادة، وكان من أطول الناس وأجسمهم، فقال له معاوية- والعلجُ عنده-: إذا أتيتَ رَحْلَك فابعثْ إليّ بسراويلك، فنزعها، ورمى بها إلى العلج، فلبسها العِلجُ، فطالتْ إلى صدره».

---

(١) ثمار القلوب/ ٣٢٦.
(٢) المصدر السابق/ ٣٤٠.
(٣) المصدر السابق/ ٢٢٠.
(٤) المصدر السابق/ ٢٩٤.
(٥) المصدر السابق/ ٦٠١.

هـ- نصوص من فنِّ التمثيل

في الفقرة الثالثة من هذا البحث كنا قد ذكرنا ما قيل في التمثيل، وقارنَّا التمثيل بالمَثَل، وشَفَعْنا المقارنة بنصَّيْن: مَثَلٍ مُجْملٍ وتمثيلٍ مفصَّل، واستخلصنا بالمقارنة سماتٍ تميز التمثيل من المثل، وهي: الأقصوصةُ، وانتزاعُ وجه الشبه من متعدِّد، والتحليلُ النفسي لنوازع الإنسان، حتى حينما تكون شخصياتُ الأقصوصة من الحيوان الأعجم.

- قال أبو قِلابةَ عبدُ الله بن زيد الجرميّ[١]: «ما وجدتُ مَثَلَ القاضي العالم إلا مثل رجل وقع في بحر، فما عسى أن يَسْبَح حتى يغرق». يصور الجرميّ ما كان عليه الفقهاء من ورع يُقصيهم عن المناصب عامة، وعن القضاء خاصّة، خوفاً من أن تعصف بهم رياح المصالح، فتلوي أشرعتهم عن الحق، ثم تغرقهم في بحرها الهائج. وهذا التمثيل يطير بذاكرتك إلى الرسالة التي بعث بها أبو حازم الأعرج إلى ابن شهاب الزهري، فتدرك حينئذٍ أن تخوّف المتخوفين نجم عن تزلف المتزلفين، وأن الأعرجَ والزهري يمثلان اصطراعَ الورعِ والطمع في كلّ عصر، وتردُّد العلماء بين الدين والدنيا والرعاة والرعية.
- قال وَهْب بن مُنبِّه[٢]: «مَثَلُ الدنيا والآخرة كَمَثَلِ رجلٍ له ضَرَّتان، إنْ أرضى إحداهما أَسْخَط الأخرى». نزع وَهْب عن قوس الجرميّ، لكنه زاد الفكرةَ وضوحاً، والصراعَ عنفاً، والمشاعر توهُّجاً. فالجرميُّ خوّف الفقيهَ من الغرق في لُجَّة الطمع، فجاءت الصورةُ على مشهد واحد، وابنُ منبِّه أدار العراكَ بين نقيضين متصارعين، فحرَّكَ المشهد بشراسة الغيْرة، وبثَّ فيه مشاعرَ مُثيرة من الحبِّ والكره، والقبول والرفض، والإغواء والزهد، فجاءَ مشهده أجمل من الأول.
- قال أبو مسلم الخولاني[٣] - واسمه عبد الله بن ثوب [ت: ٨٠هـ] -: «مثل الصالحين مَثَلُ الأميال في الأرض ينجو بها السالكُ من الضلالة. ومثلُ

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٧٠.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٦/ ٣٩٥، والبداية والنهاية ٩/ ٢٨٩ باختلاف.
(٣) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ٦٤.

العلماء في الأرض مثلُ النجوم في السماء إذا بدتْ لهم اهتدوا، وإذا خفيتْ عليهم تحيَّروا». تخيَّر الخولاني فريقاً واحداً من فريقي الصراع بين الدين والدنيا، وهو الفريق النقي من أوشاب المطامع، وجعله شطرين: الصالحين، والمتفقهين. وضع الأول في الأرض، ورفع الثاني إلى السماء، فشبه الأول بالصوى المغروسة على مفارق الطرق، والثاني بالكواكب المبثوثة في جوانب الأفق. بالصوى يقتدي السالك لينجو من المهالك. وبالكواكب يهتدي الجاهل ليتعلم أحكام الشريعة، والثانية أهم وأعظم لأن احتجابها يترك الأمة في غمة. وما ينجم عن احتجاب الكواكب صوّره التمثيل التالي:

- قال عبدُ الله بن عمر بن الخطاب[1]: «إنَّما مَثَلُنا في هذه الفتنة كَمَثل قوم يسيرون على جادَّة يعرفونها. فبينا هم كذلك إذْ غشيتْهم سحابةٌ وظلمة، فأخذَ بعضُهم يميناً وشمالاً، فأخطأ الطريق، وأقَمْنا حيث أدركنا ذلك، حتى جلا الله ذلك عنَّا، فأبصرْنا طريقَنا الأوَّلَ، فعرفناه، فأخذنا فيه. إنَّما هؤلاءِ فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان، وعلى هذه الدنيا، ما أبالي ألَّا يكون لي ما يقتلُ عليه بعضُهم بعضاً بنعليَّ هاتين الجَرْداوَيْن». وأهمُّ ما في هذا التمثيل أنَّ ابن عمر جعل الفتنة سحابةً سوداء، وليلةً ظلماء، يخبطُ دونهما المقتتلون خبطَ عشواء، وجعلَ السُّلطانَ والمال وزينة الحياة أهونَ من نعليه. وصدق فيما نطق. روى الإمام الذهبيُّ عن الحسن بن عليّ ﷺ أنَّ الناس حينما نشبت الفتنةُ «أتوا ابنَ عمر، فقالوا: أنت سيدُ الناس، وابنُ سيدهم، والناسُ بك راضون. اخرجْ نبايعك، فقال: لا، والله، لا يُهراق فيَّ مِحجمةٌ من دم، ولا في سببي، ما كان فيَّ روحٌ».

وليس لك أن تستغربَ وفرةَ ما قيل من تمثيل في شؤون السياسة والإدارة، ولا كثرةَ مَنْ شاركوا في الصراع، فقد شغل الاقتتالُ في سبيل الظفر بالخلافة سيوفَ المحاربين، وأهواءَ الطامحين، وأدمغةَ الحكماء، لأن سيطرة الأمويين على الحكم أثارتْ من الخلاف ضعفَ ما أخمدتْ، وأنطقتْ من المعارضين أضعاف مَنْ أسكتت.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٧.

- قال أبو مسلم الخولاني لمعاوية بن أبي سفيان[١]: «إنما مَثَلُك مَثَلُ رجل استأجرَ أجيراً، فولّاه ماشيتَه، وجعل له الأجرَ على أن يُحسنَ الرِّعيةَ، ويوفِّر جزازها وألبانها. فإن هو أحسن رعيتها، ووفَّر جزازها حتى تلحقَ الصغيرةُ، وتسمنَ العجفاءُ، أعطاه أجرَه وزاده من قبله زيادةً، وإن هو لم يُحسنْ رِعْيَتَها، وأضاعها حتى تهلك العجفاءُ، وتعجف السمينة، ولم يوفِّر جزازها وألبانها غضب عليه صاحبُ الأجر، فعاقبَه، ولم يُعْطه الأجر».

ويخيل إلينا أن الخولاني استمد صورته فيما مثل من الحديث الشريف المشهور: كلكم راع وكلُّ راع مسؤول عن رعيته....

- قال الوليد بن عبد الملك[٢]: «مَثَلي ومَثَلُ الحجَّاج وأبي العلاء كمن ضاع منه درهمٌ، فوجد ديناراً». أبو العلاء-واسمه يزيد بن دينار- كان مولى الحجاج وكاتبه ومشيره، قال الإمام الذهبي: «استخلفه الحجَّاج عند موته على أموال الخراج، فضبط ذلك، وأقرَّه الوليد». وفحوى التمثيل السابق أن الوليد وجد في أبي العلاء ما حُرم من عون وحزم بعد أن مات الحجاج، وأن أبا العلاء خيرٌ من سلفه وأضبط.
- قالت عائشةُ رضي الله عنها لأبي سلمة عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف - وكان يجادلُ عبدَ الله بنَ عباس -[٣]: «إنما مثلك يا أبا سلمة مثل الفروج، سمع الديكة تصيح، فصاح معها». ومغزى هذا التمثيل أن أبا سلمة لم يصب من العلم والتفقُّه في الدين ما أصاب حبر الأمة، فكيف يطاوله ويماريه فيما يقصّر عنه فيه؟
- قال شقيق بن سلمة الأسدي[٤] [ت: نحو ٩٩هـ]: «مَثَلُ قُرَّاء هذا الزمان كغنمٍ ضَوَائنَ ذاتِ صوف عجافٍ، أكلت من الحمض، وشربت من الماء حتى انتفخت خواصرها، فمرَّت برجل، فأعجبته، فقام إليها، فَعَبَطَ شاة منها، فإذا هي لا تنقي. ثم عبط أخرى، فإذا هي كذلك، فقال: أُفٍّ لك

(١) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ٦٤.
(٢) سير أعلام النبلاء٤/ ٥٩٣.
(٣) مختصر تاريخ دمشق١٣/ ٩.
(٤) المصدر السابق١٠/ ٣٣٠، عبط: نحر الذبيحة من غير داء أو كسر، لا تنقي: التي لا مخ لعظامها لضعفها وهزالها.

سائر اليوم». قد تحمل كلامَ شقيق بن سلمة-وكنيتُه أبو وائل- على محمل المفاخرة بنفسه والزراية بلِداته من ألفاف القُرَّاء، وتحتجُّ بما روى الذهبيُّ من أقوال تنوِّه بعلمه وعمله، ومنها«أنه تعلَّم القرآن في شهرين... وكان ثقة كثير الحديث....و كان رأساً في العلم والعمل». والحقُّ أن غرض التمثيل الحثُّ على التجويد والإتقان، لا الشتم والتجريح. قال الذهبيُّ[١]: «قال عاصمُ بن أبي النجود: ما سمعتُ أبا وائلٍ سبَّ إنساناً قطُّ، ولابهيمة».

- كتب مروان بن محمد إلى بعض الخوارج[٢]: «إني وإيَّاك كالحجر والزجاجة، إن وقع عليها رضَّها، وإنْ وقعتْ عليه فضَّها» إن التمثيل على إيجازه، يرسم صورة صادقة التعبير عن شخصية مروان بن محمد، فقد كان-والقول للذهبي- «بطلاً شجاعاً داهية رزيناً جباراً، يصل السير بالسُّرى...مهيباً، شديد الوطأة، أديباً، بليغاً، له رسائل تذكر». وتمثيله يدلُّ على انتصار القوي وانكسار الضعيف في كلّ حال، فمروانُ صُلْبُ المظهر والجوهر، وخصمه صلب الملمس هش المكسر. والأصلبُ أغلبُ، سواءٌ أضُرِبَ أم ضَرَب.
- قال الجاحظ[٣]: «وفيما يُضْرَب بالأمثال من العِصيِّ قالوا: قال جميلُ بن بَصْبَهْرِيّ حين شكا إليه الدهاقينُ شرَّ الحجاج. قال: أخبروني أين مولده؟ قالوا: الحجازُ. قال: ضعيفٌ مُعْجَب. قال: فمنشؤُه؟ قالوا: الشامُ. قال: ذلك شرٌّ. ثم قال: ما أحسنَ حالكم إن لم تُبْتَلوا معه بكاتب منكم-يعني من أهل بابل- فابْتُلوا بزاذان فَرُّوخ الأعور. ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: إنَّ فأساً ليس فيها عودٌ أُلقيتْ بين الشجر، فقال بعضُ الشجر لبعض: ما أُلقيتْ هذه هنا لخير. قال: فقالت شجرةٌ عادِيَّة: إنْ لم يدخلْ في استِ هذه عودٌ منكن، فلا تخَفْنَها». أُوتي هذا التمثيلُ مُقوِّماتِ الإجادة، وهي: عمقُ التفكير، وجمالُ التصوير، وحيويةُ التعبير: أمّا الفكرةُ فخلاصتُها أن الظالم مهما يكنْ حظُّه من الجبروت عظيماً، فإنه لا يقوى على ظُلْم الرعية

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٦١.
(٢) الإعجاز والإيجاز/ ٧٦، والمختار من نثر الدرر٢/ ٥٣ باختلاف.
(٣) البيان والتبيين٣/ ٣٦.

بلا أعوان، وأخطرُ أعوانه، وأشدُّهم ظلماً مَنْ كانوا من جنس المظلومين. وأمَّا الصورةُ ففي طرفها الأول الحجَّاجُ وعاملُه الأعور وأهلُ بابل، وفي طرفها الثاني الفأسُ ونصابُها الخشبيّ والشجر، وأمّا الحيوية في الأسلوب فناجمةٌ عن التعبير عن الفكرة بأقصوصة مشوقة ذاتِ حَدَث وحوار وشخوص بعضُها حقيقيٌّ، وبعضها خيالي.

و- السمات الفكرية والفنية

لا يخطئ من يزعم أن الحكمة والمثل والتمثيل شجرة واحدة، وأن ما شاع من الحكمة أصبح مثلاً، وما تركب من الأمثال آض تمثيلاً. ولا يخطئ كذلك من يدَّعي أن هذه الأجناس الأدبية الثلاثة هي عند التحقيق عشائر من قبيلة واحدة، فالحكمة ولدت المثل والتمثيل كما وُلِدتْ عبس وذبيان من غطفان. وعلى ضوء هذه الحقيقة تستطيع أن تقول: إن جُلَّ السمات الفكرية والفنية التي وسمت بها الحكمة يمكن أن يوسم بها المثل والتمثيل، على أن يخصص المثل بملامح يتفرد بها من الحكمة، وأن يماز التمثيل بقسمات لا تتراءى في المثل. فما أبرز هذه السمات؟

١- استلهام المعاني من الكتاب والسنة

نبعت حكم الجاهليين وأمثالهم من منبعين: خبرة مكسوبة من التجربة، وفطرة موهوبة، فطر عليها ذوو الذكاء والنجابة والنظر الحصيف. فلما بزغ الإسلام أضاف إلى الخبرة أدب الإسلام وأخلاق النبوة، وصقل الفطرة بالكتاب والسنة، فلقحت العقول، وأثمرت، فكانت أمثال العصر الأموي بعض ثمارها. فليس من المستغرب إذن أن يتجلّى الفكر الديني الإسلامي في أمثال العصر الأموي، حتى إنك لتردّ طائفة منها إلى آيات وأحاديث باللفظ والمعنى حيناً، وبالمعنى وحده في أكثر الأحيان.

ومن هذه الأمثال قول مطرف بن عبد الله بن الشخير[1] [ت: ٨٧هـ]: «الحسنة بين السيئتين، وخير الأمور أوساطها، وشرُّ السير الحقحقة». ذكر ابن

(١) فصل المقال/ ٣١٧.

منظور المثل، وقال في شرحه: «الحقحقة: شدة السير... هو إشارة إلى الرفق في العبادة، يعني عليك بالقصد في العبادة، ولا تحمل على نفسك فتسأم، وخير العمل ماديم، وإن قلَّ. وإذا حملت على نفسك من العبادة ما لا تطيقه انقطعت به عن الدوام على العبادة وبقيت حسيراً». وهذا المثل مُستلهَمٌ من الحديث النبوّي الشريف. قال البكريُّ[١]: «روى غيرُ واحد عن ابن المنكدر عن عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ قال[٢]: إن هذا الدين متينٌ، فأوغِلْ فيه برفق، ولا تبغِّضْ إلى نفسك عبادة ربّك، فإن المنبتَّ لا أرضاً قَطَعَ، ولا ظهراً أَبْقى». ووسطية الإسلام التي ينطوي عليها المثل أظهرُ وأشهرُ من أن تحتاجَ إلى شاهد أو نصّ.

٢- ارتباط الأمثال بالأحداث والرجال

أجملُ ما في الأمثال من جمال أنها، على وجازتِها البالغة حدَّ الغموض أحياناً، شُرفاتٌ، يطلُّ منها العربي على تاريخه، أو ثقوب صغيرة كالوصاوص التي وصفها المثقِّب العبديّ، يستطيع أن ينظر منها القارئُ العصري إلى العصر الأموي، أو مفاتيحُ صغيرة، متى أدارها في أقفال الأحداث الكبار انفتحتْ أمامه أبوابٌ، وجرت بين يديه أحداث، وتحاورت على مسمع منه ومشهد شخوص من أشهر الخلفاء والشعراء والأمراء.

من هذا الضرب مثل ذُكر في كتاب (تمثال الأمثال)[٣]، وذكره ابنُ عبد ربِّه في عقده[٤] مشفوعاً بخبر مطوَّل مفصّل عن عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف. وخلاصة الخبر أن عبد الملك يُرسل كتاباً إلى الحجاج مع رسول اسمه نُباتة، ويأمره بالإسراع ما استطاع، فيطيرُ نباتة بالكتاب من الشام إلى العراق أسرعَ من حمام الزاجل، ويعود بالردّ، فيعجب عبد الملك من سرعة رسوله في

---

(١) المصدر السابق/ ١٣.

(٢) الحديث في الجامع الصغير/ ٢٩٣ عن أنس«إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» حديث حسن. وعن جابر«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإنّ المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» حديث ضعيف. والمنبتّ: الذي قُطع به في السفر وعَطِبت راحلته.

(٣) ٢/ ٥٦٥.

(٤) ٥/ ٢٠.

ذهابه وإيابه، ويخيَّل إليه أنه لم ينمْ طَوالَ سفره قطُّ، فيقول: أما احتواك المضجعُ يا نباتة؟ فيجيبُه نباتةُ إجابةً ذهبتْ مثلاً: وهي: «مَنْ خاف من وجه الصباح أدْلَج». وهذا المَثل يُضْرَبُ لمن يستحثه الخوفُ من الويْل على السير في الليل.

ومن هذا الضرب: «لا مالَ إلّا ما أحرزته العِياب»[١]. قاله مروان بن الحكم حينما أخرج عبدُ الله بن الزبير بني أمية من المدينة، وفيهم مروان. والعياب: أوعية من أدم تكون فيها الأمتعة.

ومنه: «أهْوَنُ من تَبالَةَ على الحجَّاج»[٢] وفحواه أن أوَّل عمل وَلِيَه الحجاج بن يوسف (تبالة). فلما سار إليها وقرب منها قال للدليل: أين هي؟ وعلى أي سمت هي؟قال: تسترك عنها هذه الأكمة. قال: لا أراني أميراً إلا على موضع تسترني منه أكمة!! أهون بها عليّ. وكرَّ راجعاً.

ومنه: «سنيات خالد»[٣] يضرب أهل المدينة المثل بسنيات خالد للجدب بعد الخصب، وخالد هذا هو خالد بن عبد الملك بن الحارث، ولي لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين، فأقحط الناس حتى أجلى أهل البوادي إلى الشام.

٣- توليد الأفكار من أقاصيص الحيوان والنبات

ذكرنا قبلُ أن في الأمثال عامّة، والتمثيل خاصَّة أفكاراً استُنبطتْ من غير البشر، وسُخِّر للنطق بها شخوصٌ من عالمي الحيوان والنبات، وشفعنا ما ذكرنا بتمثيل لجميل بن بَصبهرِيٍّ، نقدَ فيه أعوان الحجاج، وحمَّلهم من أوزار الظلم فوق ما حمل الحجاج نفسه، لكنه استنبط فكرته من أقصوصة متوهمة، دارت أحداثها في غابة، وعُقِد حوارُها بين أشجار صغيرة، وفأس حديدية، وشجرة قديمة حكيمة. وربَّما كان عالم الحيوان أصلحَ لهذا الغرض من عالم النبات، لأن في شخوصه حركاتٍ وأصواتاً تقرِّب أصحابها من البشر، وتسوِّغ جعلَ الحيوان شخصاً من شخوص القِصَّة ناطقاً بأفكار البشر.

---

(١) تمثال الأمثال ٢/ ٥٣٩.

(٢) الحيوان١/ ٣٢٣.

(٣) ثمار القلوب/ ١٥١.

ومن هذا الضرب التمثيل التالي: كان عبد الله بن ذكوان المعروفُ بأبي الزناد[١] [ت: ١٣١هـ] فقيه أهل المدينة. وكان مُعادياً لربيعة بن أبي عبد الرحمن، وكانا فقيهي البلد في زمانهما. وكان الماجشون يُعينُ ربيعةَ على أبي الزناد. والماجشون أوَّلُ من علم الغناء من أهل المروءة في المدينة فقال أبو الزناد: «مَثَلي ومَثَلُ الماجشون مَثَلُ ذئبٍ، كان يلجُ على أهل قرية، فيأكلُ صبيانهم ودواجنهم. فاجتمعوا له، وخرجوا في طلبه، فهربَ منهم، فتقطَّعوا عنه إلَّا صاحب فخَّار فألحَّ في طلبه، فوقف له الذئب، فقال: هؤلاء عذرتُهم، أرأيتك أنت ما لي وما لك؟ والله ما كسرتُ لك فخَّارة قطّ. ثم قال: ما لي وللماجشون؟ والله ما كسرتُ له كَبَراً[٢] ولا بَرْبَطاً»[٣].

٤- الإيجاز الشديد[٤]

لَمَّا كانت الأمثالُ بناتِ الحكم فقد ورثتْ عنها سمتين من أهمِّ السمات الفكرية واللفظية: كثافة المعاني، ولطافةَ المباني، أي الدلالة على كثيرٍ من الأفكار بيسيرٍ من الألفاظ، غير أن الحكم أنجزُ، والأمثال أوجزُ. وإنجاز الحكم لا ينجمُ عن كونها أوفر ألفاظاً من الأمثال، وإنما ينجم عن استقلال معانيها بمبانيها.

أمّا الأمثالُ ففي بعضها إيجازٌ مخلٌّ، لأن لفظها غيرُ مستقلّ إمَّا لأنها نهاية قصة، أو تلخيصُ تجربة، وإما لأنها مدحٌ لفاضل حُذف اسمُه وأُطريتْ فضيلتُه، أو شتم لمرذول ذكر اسمُه وطُوِيَتْ رذيلتُه، ومن الإطراءِ والشتم، أو من الكنية والاسم عليك أن تخمّن المحذوف لتصل ما انقطع بأصلِه، وتلحق المُضْمَر

(١) مختصر تاريخ دمشق٢/ ١٤١.
(٢) الطبل.
(٣) العود.
(٤) الإيجاز: من شروط الفصاحة والبلاغة ويقابل الإطناب، وقد جعل بعضهم الإيجاز والاختصار لوناً واحداً وميز بعضهم بينهما وهو حذف فضول الكلام والتعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة الوافية بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح وسرعة الوصول إلى الفهم وقسمه البلاغيون إلى قسمين إيجاز قصر وإيجاز حذف، انظر: كشاف اصطلاحات الفنون/ ٢٩١، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي/ ٢٠٥، وجواهر البلاغة/ ٢٢٢.

بما ظهر منه، وقلَّما تصيبُ إنْ لم تَسْتفتِ أهلَ الذكر. ولهذا حظيت الأمثالُ بكتب فسَّرت أخبارها، وذكرت أشعارها، وربطتْ نهاياتها ببداياتها، وسمَّت أصحابها وحدَّدتْ مضاربها، ولم تَحْظَ الحِكم بمثل هذه الكتب.

لو قرأت هذا المثل: «كُنْ هلالاً ولا نُبالي ما صنعت» لذهب الظنُّ بك كلَّ مذهب في تحليله وتأويله. قال أبو الفرج الأصفهاني[١]: «هلالُ بن الأسعر المازني التميميّ شاعرٌ من شعراء الدولة الأموية، كان فارساً شجاعاً، شديد البأس والبطش، عادِيَّ الخَلْق، مرَّ به رجلان من تميم من أشدِّ الناس بطشاً، فشتماه، ولا يعلمان مَنْ هو، فجذب أحدَهما، فوضعه تحت فخذه، فاستغاث بالآخر، فدنا منه، فتناوله هلالٌ أيضاً، فاجتذبه، فرمى به تحت فخذه الأخرى، ثم أخذ برقابهما، فجعل يصُكُّ رؤوسهما بعضاً ببعض. فقال أحدهما: كُنْ هلالاً ولا نبالي ما صَنعتَ» فذهبتْ مثلاً.

ولو سمعت متمثلاً يتمثَّل بهذين المَثَلَيْن: «أشقرُ مروان»[٢] و«عنزُ الأعمش»[٣] لحِرْتَ في تفسيرهما. «فأشقرُ مروان» فرسٌ مشهور لمروان بنِ محمد آخر خلفاء الأمويين، استوفى أقسام الجودة والعِتق، و«عنزُ الأعمش» يُضْرَب مثلاً لمْن يُنَزَّل منزلةً لا يستحقُّها لغياب مَنْ يصلحُ لها. وتأويلهُ أن الأعمش كان إذا فَقَدَ مَنْ يُحدِّثه من أصحابه أقبلَ على عَنْزٍ له، يحدِّثها كراهةَ الفراغ.

ولك أن تلخّص ما زعمنا بجملتين: إيجازُ الحِكَم مقرونٌ بالإنجاز، وإيجازُ الأمثال قد يشوبهُ الإلغاز.

٥- تجسيم التعبير بالتصوير

إذا كانت الحكم تبزُّ الأمثالَ في وضوح المعاني، فإن الأمثالَ تبزُّ الحِكم في جمال الصور. فأفكارُ الحكم كَثُرَ ما تأتي مجرَّدة، وأفكارُ الأمثال قلَّما تتجرد. وإذا تراءى لك أنها مجرَّدة، فإن ما حُذف منها إذا أضيفَ إلى ما ذكر يكمل الصورة. وهذا يعني أن الكثرة الكاثرة من الأمثال ذواتُ صور إما ملفوظة إذا كانت تامة الذكر، وإما ملحوظة إذا ذُكر منها بعض وقدِّر بعض.

---

(١) الأغاني ٣/ ٥٥.

(٢) ثمار القلوب/ ٣٧٧.

(٣) المصدر السابق/ ١٧١.

حينما تعبِّر عن الطمع بالمثلِ السائر: «شاةُ أَشْعب»[١] فأنت تذكرُ المشبَّه به وهو الشاةُ، وتقدِّر المشبَّهَ وهو الشخصُ الطامع. وفحوى المثل «أَنه قيل لأشعب: هل رأيتَ أطمعَ منك؟ قال: نعمْ، شاةً لي، صعدت في السطح، فنظرت إلى قوس قزح، فظنته حبل قتّ، فسقطت، فاندقّ عنقها».

وإذا كان التصوير في الأمثال أشيع من التصوير في الحكم، فإن التمثيل لا يكون إلا مصوراً، وإن صوره لا ترسم إلّا مركبة، لأن وجوه الشبه فيها تنتزع من متعدد، حتى إنك تستطيع أن تقول: إن التمثيل بني على التصوير، لا على التفكير، وإن أفكاره تابعة لصوره أو نابعة منها. قال أبو مسلم الخولاني[٢]: «مثل الإمام العادل ومثل الناس كمثل فسطاط لا يستقيم إلا بعمود، ولا يقوم العمود إلا بأطناب وأوتاد. فكلما نزع وتد ازداد العمود وهناً، فلا يصلح الناس إلا بالإمام، ولا يصلح الإمام إلَّا بالناس».

٦- الخبر أشيع من الإنشاء

نجم عن تشابه الحكم والأمثال في المعاني تشابه آخر في المباني.و فحواه غلبة الخبر على الإنشاء، في التراكيب والأساليب. وعلة ذلك أن الحكم والأمثال تنطوي على أحكام قطعية لا ظنية، وأنها تخاطب العقل مخاطبة الواثق بأفكار لا تحتمل الحوار. ولذلك جاء أسلوب الخبر في بنائها أشيع من أسلوب الإنشاء، نحو:

- «هذه بتلك، والبادئُ أظلم»[٣]. قاله الفرزدق، أو قتيبة بن مسلم الباهلي.
- «كلّ إنسان في بيته أمير»[٤] قالته جميلة مولاة بني سلم.
- «منك أنفك، وإن كان أجدع»[٥]، قاله عبد الله بن الزبير.

وفي بعض الأمثال قد يلقاك الإنشاء على استحياء، غير أن صياغتها الإنشائية تنطوي على تقرير خبري، كأن يصاغ المثل بأسلوب الاستفهام

(١) المصدر السابق/ ٣٧٧.
(٢) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ٦٣.
(٣) مجمع الأمثال٢/ ٤٠١.
(٤) الأغاني٨/ ٢٠٤.
(٥) مختصر تاريخ دمشق١٢/ ١٧٥.

الإنكاري، وهذه الصياغة تسلبُهُ ما وضع له الاستفهام من الاستفسار عن مجهول، وتسوقه إليك مساق الحكم القاطع، لأن الإنكار يقوي الدلالة الخبرية بما فيه من سخرية، ولا يضعفها، نحو:

- «أعن صبوح ترقق؟»[١]. قاله عامر الشعبي.
- «وهل يخفى على الناس النهار»[٢]. قاله القتال الكلابي.

٧- التوقيع بالتسجيع

إن انتماءَ الأمثال إلى قبيلة الحِكَم نقلَ إليها نقلاً وراثياً ما اتَّسمت به الحكم أحياناً من زخارف البديع. غيرَ أن الأمثال لِوَجازتها البالغة لم تتَّسع لكلِّ ما اتَّسعت له الحكم من تجانُس وتطابُق وتقابل وسجع، فجاء جُلُّها مُرْسلاً عُطْلاً من الزينة، وأقلُّها محلّى بيسير من التزاوج والتجانس، أو بالتوقيع على فواصل التسجيع. وكلَّما قصر المثل قلَّت حليته، وبهتتْ صنعته، وآثر الاسترسال على التنميق. ومن الأمثال التي حليت ببعض البديع:

- «سكت ألفاً، ونطق خَلْفاً»[٣] قاله الأحنف بن قيس.
- «سرنا شهراً، وحسرنا ظهراً، ورجعنا صفراً»[٤]. قاله معقل بن سنان.

٨- التطريب بأوزان الخليل

إذا كان الإفراطُ في الإيجاز قد فوَّتَ على الأمثال أن تزْدان بزخارف البديع، فإنه عوَّضها منها زينةً تساويها، أو تُرْبي عليها، وهي التطريبُ المقطَّع الموقَّع على إيقاع الأوزان العروضية. ولشيوع العروض في الأمثال علَّتان:

أولاهما أن ألفاظ اللغة العربية قد تأتلفُ ائتلافاً موزوناً، فُطرت عليه اللغة، فإذا المثل بيتٌ أو شطر.

---

(١) فصل المقال/ ٧٥، يضرب لمن يظهر شيئاً وهو يريد غيره، والصبوح: الغداء، والترقيق في الكلام: التعريض، وانظر اللسان/ رقرق.

(٢) فصل المقال/ ١٢٨، يضرب للشيء لا يخفى على أحد.

(٣) تمثال الأمثال٢/ ٤٥٥، والخَلْف: الرديء من القول، يضرب لمن كان صمته خيراً من كلامه.

(٤) مختصرتاريخ دمشق ٢٥/ ١٣٣، حسرنا ظهراً: أتعبنا دوابنا، يضرب لمن يجدّ ويتعب ولا يحصل شيئاً.

والثانية أن الشاعر قد ينظم القصيدة على السجية مادحاً أو قادحاً، راثياً أو شاكياً، فيتناقلُ الناس ما نظم. ثم يتخيَّرون من القصيدة بيتاً أو شطراً، يُعجبهم معناه، ويُطربُهم مبناه، فإذا هو مثل سائر، يفارق قصيدته، ولا يفارق نغمته، فتُعينه هذه النغمة على الذيوع والرسوخ في الأذهان. نحو:

- «لا قَدْحَ إن لم تورِ ناراً بِهَجَر»[١]. قاله العجَّاج.
- «مَنْ يلقَ أبطالَ الرجال يُكْلَم»[٢] قاله عقيلُ بن عُلَّفة المرّيّ.
- «وليس لمخضوب البنان يمينُ»[٣]. قاله مسكين الدارميّ.
- «هنيئاً مريئاً غير داء مخامر»[٤]. قاله كثيّر عزة.

(١) ديوان العجاج ١/ ٧٠، ومعناه: لا عمل حتى تسعر الحرب على الحروريّة في هجر، يضرب للرجل يقوم بأعمال كثيرة إلّا أنه لم يقم بأهمها.
(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٣١٢.
(٣) تمثال الأمثال٢/ ٥٤٩ يضرب في قلة الثقة بالنساء.
(٤) تمثال الأمثال ٢/ ٥٨٤.